نافيد كِرماني

بُزُوغُ الحَقِيقَةِ

على دُرُوبِ اللاَّجِئِينَ عَبْرَ أُوروبا

ترجمة: د. نيرمين الشرقاوي



بُزُوغُ الحَقِيقَةِ

على دُرُوبِ اللَّاجِئِينَ عَبْرَ أُوروبا

الدكتورة/ نرمين أحمد جلال حسين الشرقاوي أستاذ مساعد اللغة الألمانية بكلية الألسن جامعة عين شمس، درست اللغة الألمانية وآدابها والترجمة في مصر وألمانيا، وترجمت إلى العربية عدة أعمال صدرت حديثا بالألمانية من بينها رواية "تأثير اللوتس" لأنتونيا فيرنباخ ورواية "فستان أمي" لآنا كاترينا هان" وكتاب "الديمقراطية في الإسلام" لجودرون كريمر.

....

بُزُوغُ الحَقِيقَةِ
الطبعة الأولى 2019
رقم الإيـــــداع: 2018/19192

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

EINBRUCH DER WIRKLICHKEIT by Navid Kermani,
© Verlag C.H.Beck oHG, München 2016
"The translation of this work was supported by the Goethe-Institut, Which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its programme Litrix.de"







دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

نافيد كِرماني

بُزُوغُ الحَقِيقَةِ

على دُرُوبِ اللَّاجِئِينَ عَبْرَ أُوروبا

ترجمة:

د. نيرمين الشرقاوي



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

كِرماني ، نافيد

بُزُوغُ الحَقِيقَةِ على دُرُوبِ اللَّاجِئينَ عَبْرَ أُوروبا / نافيد كِرماني، ترجمة: نيرمين الشرقاوي

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، 2018

92ص، 20 سم

تدمك 978-977-821-082-8

-1 اللَّاجِئينَ

-2 المانيا، السكان الأجانب

أ- الشرقاوي، نيرمين

ب- العنوان

301.45

رقم الإيداع: 2018/19192

المحتويات

ألمانيا التي صارت رقيقة القلب على نحو غريب

كانت ألمانيا التي غادرتها في نهاية سبتمبر من عام 2015 قد صارت رقيقة القلب على نحو غريب، رأيت أجانب في محطات السكك الحديدية بالمدن الكبيرة راقدين على مراتب خضراء من المطاط الإسفنجي ما بين المسافرين المسارعين للخروج من المحطة أو اللاهثين من أجل اللحاق بقطاراتهم، لم يخيفوهم ليبتعدوا، ولم يغضب أحد بسبب الفوضى التي استشرت في المحطة، لا، بل إن سكانًا محليين يرتدون سترات صفراء فاقعة كانوا يجثون إلى جوار الأجانب لإمدادهم بالشاي، أو بالخبز المدهون، أو حتى ليلعبوا مع أطفالهم، ولقد نُصبت خيام أمام محطات السكك الحديدية تُحمَل إليها باستمرار صناديق تحوي مواد غذائية وملابس وألعاب أطفال وأدوية، إنها تبرعات من الشعب الألماني، وفي الوقت الذي كانت فيه بلدان أخرى تستوقف الأجانب وتضيق الخناق عليهم لدرجة تجعلهم يرغبون في الهروب سيرًا على الأقدام على الطرق السريعة، كانت ألمانيا تبعث إليهم بقطارات خاصة لجلبهم، وأينما يحلون دائمًا ما يجدون مواطنين في استقبالهم على رصيف المحطة، بل كثيرًا ما يجدون عمدة

المدينة من بين المُرحِّبين، أما الصحف المحلية فمثلها مثل قنوات التلفزيون القومية كانت تُعلِم المواطنين عن الكيفية التي يمكن بها لكل فرد ألماني أن يساعد الأجانب، بل حتى أكثر الصحف عداوة للأجانب على الإطلاق في ألمانيا حرصت على تقديم متابعات من حياة الأجانب من يوم لآخر، فإذ بها تحكي ببلاغة عن ويلات الحرب، وتُصوِّر القهر، والعقبات والمخاطر التي واجهتهم أثناء رحلة الهروب، لدرجة أنه لم يعد أحد، ولا حتى زبائن المقاهي، يستشعر أن الرغبة في إنقاذهم قد تكون أمرًا مذمومًا، ثم تشكلت في القرى والمدن مبادرات أهلية ليست ضد، بل من أجل الجيران الجدد، كما قامت فرق كرة القدم المشاركة في الدوري الألماني (البونديسليجا) بخياطة ملصقات على فانلات اللاعبين ترحب باللاجئين، كما أن أكثر نجوم التمثيل والغناء شعبية يرغي ويزبد ضد أي شخص لا يظهر تضامنه معهم.

نعم كانت ثمة كراهية –أيضًا- ضد الأجانب، وقعت اعتداءات، لكن الآن يقف السياسيون فورًا إلى جوار المُهددَين ويقومون بزيارات لأماكن إيوائهم، حتى المستشارة الاتحادية نفسها -المستشارة الاتحادية الألمانية بالغة اليقظة- تلك التي ظهرت قبل أسابيع قليلة مكتوفة اليدين أمام فتاة فلسطينية تنتحب، قد أثارت دهشة الجميع بمشاعرها التي فاضت وهي تدافع عن حق اللجوء السياسي، بل الحكومة برمتها: هل كانت هي ذات الحكومة التي ارتفع صوتها مجلجلًا قبل بضعة أشهر وهي تنتقد

برنامج (مارِ نوستروم)[1] الذي كانت تستهدف إيطاليا من ورائه إنقاذ اللاجئين القادمين بالقوارب من الغرق؟ ثم الدولة، الدولة الألمانية: لقد قدمت الرعاية لمئات الآلاف من اللاجئين الجدد في غضون أسابيع قليلة، لقد حطم ذلك أي إطار مسبق، غير أنه وعلى نحو مثير للدهشة، قد نجح نجاحًا كبيرًا، وفي كل الأحوال ظلت الأصوات التي تتذمر -أن صالات الألعاب الرياضية لم تعد متاحة للمدارس- خفيضة، مثلها مثل الأصوات التي زادت من تقدير مصروفاتها وزعمت أن ذلك ربما سوف يقتضي الاستدانة، ثم ماذا لو أنه في العام المقبل –أيضًا- وصل مليون لاجئ؟ وماذا لو وصل أكثر من ذلك في العام الذي يليه؟ لقد صارت ألمانيا رقيقة القلب على نحو غريب، تلك الألمانيا التي غادرتها، أيضًاكل ما هو رمادي، والذي عادة ما يكون متصلبًا وطاردًا، أضحى وكأن طبقة من السكر المطحون قد غطته، وفي نفس اللحظة التي كنت أغادرها فيها، فكرت أو بدأت أشعر فعلًا كم أنه من اليسير نفض السكر المطحون.

1- Mare nostrum هو الاسم الذي أطلقته الإمبراطورية الرومانية على البحر المتوسط، أعيد إحياء المصطلح في العصر الحديث عدة مرات بأهداف متعددة، ثم أطلقته الحكومة الإيطالية عام 2013 على مشروع يقوي الرقابة على البحر المتوسط من خلال القيام بعمليات عسكرية وإنسانية تستهدف إنقاذ المهاجرين عبر البحر والقبض على المتاجرين بهم ومهربيهم. (المترجمة)

هجرات جماعية

أرى الساحل التركي من شرفة غرفتي بالفندق على جزيرة ليسبوس، فهو يقع على بعد كيلومترات معدودة على الناحية الأخرى من البحر المتوسط، إنها الثامنة والنصف صباحًا، والآن، وفي نفس اللحظة التي أكتب فيها هذه الجملة، تصل في الحارة بالأسفل المجموعة الأولى من اللاجئين إلى الناصية، أخمن من مظهرهم العام، ومن مقتطفات من كلامهم، أنهم كلهم أفغان، كلهم رجال، من الواضح أن قواربهم المطاطية قد وصلت إلى أوربا بلا صعوبات جسيمة، فلا هم غارقون في البلَلِ، ولا هم يرتعدون بردًا مثل حال كثير من اللاجئين الآخرين، الذين يركنون إلى الصخور أو الشجيرات المتناثرة على المنحدر خوفًا من البوليس، أو أولئك الذين يصلون في قوارب محملة بأعداد أكثر كثيرًا من طاقتها، وحيث إنهم قد قطعوا الشوط الأخطر من رحلتهم الطويلة فهم فرحون، بل لنقل منتشون نوعًا، يثرثرون ويمزحون ويَبدون مثل مجموعة من الشبان الخارجين في نزهة بلا أمتعة تذكر، أو بحقيبة يدٍ على أقصى تقدير، غير أنهم لا يعرفون أنهم سيضطرون إلى الصعود عدة كيلومترات على منحدر جبليٍّ حاد إلى أن يصلوا إلى واحدة من الحافلات التي

خصصتها مفوضية شؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة لتحملهم إلى ميتيليني، إنهم حتى لا يعرفون أن الأمم المتحدة لا تمتلك عددًا كافيًا من الحافلات لدرجة أن اللاجئين يضطرون إلى قطع الخمس وخمسين كيلومترًا الموصلة إلى الميناء سيرًا على الأقدام، تحت شمس لا تزال مستعرة في الصباح، بينما الليالي قد صارت باردة، وبلا طعام وبلا حقائب نوم، ولا حتى ملابس ثقيلة.

ثمة طائرات تطير أسرع من الصوت، ثمة سفن تبدو مثل المدن السياحية، ثمة قطارات مريحة مثل غرف المعيشة، ثمة حافلات منتظم تسييرها تحوي مطبخًا ودورة مياه ومقاعد وثيرة للنوم، ثمة سيارات أجرة مزودة بالإنترنت اللاسلكي، وسرعان ما سنرى سيارات ذاتية القيادة، لكن في سنة 2015 يسير اللاجئون عبر أوربا مثل بني إسرائيل وقت فرارهم من مصر، فنحن دائمًا ما نرى في الأفلام المستوحاة من قصص الإنجيل أو في اللوحات حشودًا من البشر وفي مقدمتهم يسير النبي، ولقد رأيت في الرحلة من ميتيليني على الساحل الشمالي الكيفية التي على الأغلب تهاجر بها الشعوب: سلسلة طويلة لا تريد أن تنتهي من المجموعات الصغيرة والمجموعات الأصغر، تنفصل عن بعضها بمسافات متفاوتة وترتيبات متبدلة؛ فمرة يسيرون على التوالي في طابور مثل الإوز، ومرة ترى ثلاثة أو أربعة يجاور بعضهم بعضًا، ولا يبدو أن ثمة رابطًا ما بين هذه المجموعات أقوى من وجهتها المشتركة، إذ حتى لو كانوا من نفس البلد عادة

ما يكونون من مدن ومناطق مختلفة، وحتى داخل المجموعات الصغيرة غالبًا ما يكون الناس غرباء عن بعضهم، مجرد معارف بحكم الصدفة، صاروا جماعة تتقاسم نفس المصير، في البداية يظل الأربعون أو الخمسون الذين ركبوا نفس القارب المطاطي كلهم، لكن بمجرد بلوغهم المحطة الأولى يتفرق الجمع قبل حتى مئة متر من فندقي، حيث يعود أفراد الأسر إلى بعضهم، بينما يتقدم الجموع الشباب القادمين وحدهم.

إنهم الشبح المرعب الذي تخشاه أوربا: الرجال القادمون بمفردهم، الذين يريدون دخول أوربا، الشباب من المسلمين الذكور! أولئك الذين تحذر منهم خطابات القراء والبرامج الحوارية، لكن هل هم حقًّا متدينون؟ إن مظهرهم لا يشي بشيء، نادرًا ما نجد أحدًا قد أطلق لحيته، لا أحد يرتدي الجلباب التقليدي، لا يتوقفون للصلاة جماعة في أي مكان، لو فكرنا في ظروفهم مثل متى كانت آخر مرة تحمموا فيها؟ متى كانت آخر مرة ناموا فيها على فراش؟ لقلنا إذن إن هؤلاء حليقو الذقن بشكل لافت، وهذا وحده قد يكون إحدى علامات التمرد في الديكتاتوريات الإسلامية، ولربما كانت كذلك فعلًا، ففي الأخير هؤلاء هم تحديدًا السوريون والعراقيون والأفغان الذين هربوا من الظروف التي من الممكن فيها أن يُحكَم عليهم بالإعدام بسبب الحلاقة، لكن الرجال يمثلون الأغلبية العظمى من اللاجئين، ونعم أغلبهم صغير السن، ثمانية عشر، عشرون أو خمسة وعشرون عامًا، وعلى أي حال لربما يكون لذلك سبب بسيط لم يتضح لي سوى في ليسبوس

بشكل جلي ومباشر؛ على الأرجح فإن هؤلاء هم مَن ينجحون في تخطي العقبات والأخطار، والإجهاد البدني العنيف، الذي تنطوي عليه مسألة طلب اللجوء السياسي في أوربا، ولأن هذه المسألة تجبرهم على ركوب القوارب المطاطية، والسير لمسافات تطول لأيام، فإن حق اللجوء السياسي لأوربا يمارس عن غير قصد عملية انتخاب للأقوى جسديًّا، وكذلك -أيضًا-للمعوزين، أي للفقراء الذين بطبيعة الحال لم يعتادوا رغد العيش، إن خمسة وخمسين كيلومترًا لَمسافة طويلة، وخصوصًا حين يبدأ المسير في اللحظة التي يكون فيها الإنهاك قد نال من الإنسان، أو بدأ يتضوَّر جوعًا، وليس معه أحذية مناسبة، ولا ملابس ثقيلة، ولا أي زاد للطريق، ثم يجر نفسه جرًّا بلا نهاية عبر خمسة وخمسين كيلومترًا، ولعل كل سيارة ذات مقاعد خالية تتحول إلى مصب للكراهية، هذا ما افترضته، ولعل مجرد زجاجة مياه يناولها مستقل سيارة عبر النافذة تتحول إلى هدية من السماء، وهذا قد تأكدت منه في الرحلة إلى الساحل الشمالي.

هل نريد أوربا أم لا نريدها؟

حين وصلت إلى بودابست، عاصمة الدولة الأوربية المعروفة بعدائها للأجانب، أثار عجبي أنني لم أرَ أجانب على الإطلاق، بالتأكيد كان السائحون هم نفسهم في وسط المدينة، نفس السائحين الذين تراهم يجتاحون براج، أو لندن أو برلين، لكنما أعنيه بالأجانب هم أولئك الذين قد هاجروا إلى المجر أو فروا إليها، أيضًا حين غادرت مركز المدينة ظلت الوجوه في مترو الأنفاق بيضاء ولم أسمع لغة أخرى سوى اللغة المحلية، ولا حتى في منتزه "يوهانيس- باول الثاني" وهو المكان الذي اعتصم فيه الآلاف في شهر أغسطس، الذين عن طريق فرارهم على الطرق السريعة أشعلوا الشرارة الأولى التي دفعت المستشارة الألمانية لفتح الحدود بمجرد وصول أي لاجئ، إن هذا لأمر تستغربه أكثر خصوصًا حين تفكر أنه حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية كانت بودابست واحدة من العواصم الأوربية الكبرى، إن لم تكن الوحيدة التي اتسمت بالتعددية الثقافية، ناهيك عن أنها كانت فقط قبل ثلاثة قرون مقرًّا لوالٍ عثمانيّ، ولا تزال الحمامات التركية حتى يومنا هذا من المزارات التقليدية لأي برنامج سياحي.

كنت على موعد مع يوليا وإيفا وشتيفان الذين شاركوا كثيرًا من المغيثين غيرهم في رعاية اللاجئين في المنتزه، وقد كان من الغريب أن واحدة منهما لم تفصح لي عن اسمها الحقيقي إلا بعد أن التقينا، أما الأخرى فلم ترد على الهاتف وإنما سألت أولًا عبر رسالة نصية عن هوية المتصل، قالتا إنها مجرد إجراءات وقائية، وتعجبتا من تعجبي، ففي الأخير هم يساعدون أناسًا وصلوا بطريق غير مشروع، لم يتصور ثلاثتهم حتى شهر يوليو أنهم سيتحولون إلى نشطاء من الأساس، فقد كانوا يعيشون حياة عادية حيث تعمل الأولى مترجمة، والثانية طبيبة نفسية، ويعمل الثالث مستشارًا ماليًّا، ولم يكونوا مسيَّسين بأي شكل، إلا أن الشقاء وصل إلى عتبة بابهم مع بداية شهر أغسطس، فتحدثوا مع اللاجئين الذين اتضح أنهم ليسوا انتهازيين ولا إرهابيين مثلما أرادت محطات التلفزيون أن تقنع الجماهير، وإنما أناس عاديون مثلهم، بل إنهم وجدوا مترجمين، وأطباء نفسيين ومستشارين ماليِّن في ما بينهم، ومن خلال الفيسبوك عثروا على روابط تقودهم إلى جماعات الناشطين التي تشكلت في غضون ساعات، ونحن إذا ما غضضنا الطرف عن الإمدادات المتقطعة للصليب الأحمر والمنظمات الأخرى، سنجد أن المعونات التي قدمت لآلاف من اللاجئين لعدة أسابيع متتالية اعتمدت أساسًا وفقط على جهود وتبرعات مواطني بودابست.

أما الدولة فإنها لم تفعل شيئًا، ليس هذا فحسب، وإنما أظهرت في منابرها الإعلامية الاحتقار للمتطوعين في أعمال الإغاثة،

وادّعت أن جورج سوروس[1] يمولهم، وبهذا غذت النفور من معاداة السامية، بينما كانت تُشكّل في الوقت نفسه انطباعات مضادة للمسلمين، كانت ملصقات الحكومة تشاهَد على الجدران وعليها فاتنة شقراء تعلن أنها ضد المهاجرين غير الشرعيين، هذا بعدما أعلنت الحكومة أن اللاجئين كلهم مجرمون؛ لأنهم لا يستطيعون دخول البلاد بشكل شرعي، ملصقات أخرى أعلمت اللاجئين أن عليهم أن يحترموا الثقافة المجرية أو أخبرتهم أن اللغة المجرية هي لغة الحديث في المجر، كانت تعلمهم بذلك بلغة مجرية، وبذا تكون هذه الملصقات عمليًا ليست موجهة إليهم وإنما للناخبين المحليين، العنصريون موجودون في كل مكان، لكن في المجر تمارس الدولة العنصرية بنفسها، أن تقوم مصوِّرة بعرقلة لاجئ سوري يحمل طفله، لا، بل هي قامت بهذه الفعلة أمام باقي الكاميرات دون أن يطرف لها جفن لهو إذن نتيجة لاحتقار ممنهج ومتواصل للاجئين، بل ولكل ما هو أجنبي على الإطلاق، في الخطاب السياسي والإعلامي.

غير أن حملة الحكومة المناهضة للاجئين أدت فقط إلى تجميع المغيثين مع بعضهم لدرجة أنهم لا زالوا يتقابلون بانتظام رغم أن بودابست لم يعُد فيها أي لاجئ، وقد أوضحت إيفا، وهي الطبيبة النفسية الشقراء الأربعينية في ثوبها الأحمر الأنيق المسألة قائلة

1- رجل أعمال أمريكي من أصل مجري معروف بتوجهاته الليبرالية وبدعمه للناشطين السياسيين. (المترجمة)

إنه حين يمسّك الأمر بشكل شخصي، ويهتز وجدانك حيال لقاءات إنسانية حقيقية فإن الموضوع لا يُفلتك بعدها، لقد قابل اللاجئون أي شيء فعَلَتْه من أجلهم بامتنان عميق، كما أنهم منحوها فرصة أن تطلع على عوالم غريبة عليها، تقول إيفا ضاحكة لقد صرت تقريبًا خبيرة في شؤون الشرق الأوسط، وبدلًا من التلفزيون المجري أشاهد الآن قناة "سي إن إن" وقناة الجزيرة الناطقة باللغة الإنجليزية، في الوقت نفسه فقد أوضحت إيفا – أيضًا- شعورها بالعزلة؛ إذ إنها لم تعد قادرة على التحدث مع بعض من معارفها على الإطلاق، وأضحت الأحاديث العادية عن اللاجئين مريعة بالنسبة لها بشكل لا يوصف.

لقد صرت أنقر أيقونة "تجاهل" كلما قرأتلأحد منشورًا بالغ الحماقة!.

تعرف إيفا أنها تنتمي لأقلية في المجر، إنها أقلية كبيرة بل ومتنامية في بودابست، لكنها بالكاد ستجد مَن يفكر مثلها في الأرياف، ففي النهاية أحد أسباب ترك الحكومة للاجئين دون رعاية في المنتزهات ومحطات القطارات هو من أجل أن تسوء أحوالهم، وتصدر عنهم روائح نتِنة فيستشري الذعر منهم بين الناس، ولكي يخافوا من الشباب خصوصًا في الليل، بل إن ابنها ذا الستة عشر عامًا أظهر استياءه حين استقبلت إيفا في بيتها عائلة سورية ظلت لثلاثة أيام سائرة على الأقدام، وكان يتفقد إن كانوا سرقوا شيئًا في الليل.

انضم إلينا في المقهى الكاتب جورجي دراجومان الذي سيصير فعلًا واحدًا من كتاب بلاده المرموقين حين يتم الأربعين من العمر، والذي أكد على صواب كلام إيفا التي واصلت حديثها عن شعورها بالاغتراب في مجتمعها:

- «نعم هذا صحيح، أنا –أيضًا- أعيش في فقاعة».

تدَّعي الاستبيانات أن سبعين بالمئة من المجريين يؤيدون السياسة التي تنتهجها الحكومة حيال اللاجئين، غير أن جورجي لم يقابل أي واحد من هؤلاء السبعين بالمئة، فكل معارفه -وكذلك الكتاب- يحتقرون هذه الحكومة، وهو لا يدعي أنه أمر محمود أن يتحدث المرء دائمًا مع مَن يوافقونه في الرؤية، لكن المجتمع المجري منقسم بالكامل، فحتى لم تعد إمكانية عقد لقاءات مع المختلفين والتشاجر معهم -على الأقل على المنصة- إمكانية متاحة، فحول ماذا سنتشاجر أصلًا؟ إن الحديث عن غرب مسيحي بات ضربًا من الكوميديا الفاقعة، إذ حتى وقت قصير مضى لم يكن للحكومة أي شغل بالمسيحية على الإطلاق، بل كانت تحاول استدعاء تقاليد وثنية عن المجر الكبرى، وبدأت في الدعاية للانفتاح على الشرق، على الشعوب التركية التي زعموا أنها تمت للمجريين بصلات قرابة من أجل أن تخفف التوتر في علاقتها بالاتحاد الأوربي، بل حتى اليمينيون الأكثر تطرفًا كانوا يؤيدون الفلسطينيين إذا ما انشغلوا بشؤون الشرق الأوسط ولهم علاقات جيدة مع حماس، الآن وفجأة تبدو حقوق المرأة مهمة

لفيكتور أوربان رغم أنه هو ذاته ليس عنده ولا وزيرة واحدة في حكومته، لقد استغل أزمة اللاجئين من أجل أن يغذي نار الخوف من كل ما هو أجنبي في أوربا كلها وليدفع بتصوراته عن الأمم المتجانسة، في النهاية يطرح السؤال نفسه:"هل نريد أوربا أم لا نريدها؟"، تبدو المسألة في المجر ظاهريًّا متعلقة بالمسلمين، لكنها فعليًّا تتعلق بكل أشكال الاختلاف، بكل ما هو غريب على إطلاقه سواء المثلية الجنسية، أو اليهود، أو الغجر، أو وسائل الإعلام الناقدة، أو المعارضة، وجهت إليه سؤالًا على سبيل المزاح مستفسرًا إن كان هو شخصيًّا قد فكر في طلب اللجوء السياسي إلى مكان آخر.

أجاب جورجي دراجومان:

- «حين يشرعون في فرض الرقابة على كتبي سأغادر المجر».

لِمَ تأتون كلكم إذن؟

بينما أكتب هذاالنص تمر مجددًا مجموعة أخرى من الأفغان إلى جوار الفندق، الفرق فقط أنه في هذه المرة ترافقهم شابة غير محجبة ترتدي بنطلونًا جينزًا، بالتأكيد هي من سكان المدينة، وهذا أمر غير مألوف، فتقريبًا كل الأفغان الذين صادفتهم على درب اللاجئين حين سافرت عبر البلقان إلى ليسبوس كانوا قادمين من مناطق قروية، ولا يتحدثون سوى اللغة الدارية، ومن السهل معرفة أنهم ليسوا العمال المتخصصين أو المهندسين الذين يأمل الاقتصاد الألماني في اجتذابهم.

طرحت سؤالي حين أخذت معي من اللاجئين -في السيارة "الجيب" الصغيرة (Jeep)- على الأقل كبار السن والنساء والأطفال، كل مرة تسعة أو عشرة أشخاص يحشرون أنفسهم في أضيق حيز:

- «لِمَ تأتون إذن كلكم؟، ماذا تظنون أنكم واجدون في ألمانيا؟».

تمثلت أجولتهم حول "العمل"، "الالتحاق بالمدرسة"، أو "الشعور ببعض الأمان"؛ ليس ثمة مستقبل في أفغانستان.

واصلت طرح الأسئلة وأشرت إلى أنه -أيضًا- في العام الماضي لم تكن أفغانستان تبشر بأي مستقبل:

- «ولِمَ كلكم الآن تحديدًا؟».

أوضحوا لي أكثر من مرة لِمَ بدؤوا في الرحيل منذ بداية سبتمبر:

- «قيل في التلفزيون إن ألمانيا تستقبل اللاجئين، أيضًا رأينا صورًا من محطات القطار الألمانية».

لقد باع معظمهم ممتلكاتهم، ويَمَّموا وجوههم شطر إيران سيرًا على الأقدام، وعبر الجبال في تركيا، من دون أن يتمكنوا من دفع بدل مبيتهم ليلًا في مأوى، ولا ثمن طعام ساخن، ثم استأجروا في إزمير وسيطًا لتهريبهم فطالبهم بأكثر من مبلغ 1200 يورو المتفق عليه مسبقًا، وكثيرًا ما عرفوا بمجرد ركوب القارب أن عددهم أكثر مما ينبغي، مما اضطرهم إلى إلقاء كل متعلقاتهم في البحر، ثم تساءلوا، بعد أن وصلوا إلى ليسبوس، عن الكيفية التي يمكن أن يصلوا بها إلى ألمانيا وقد أصبحوا صفر اليدين وبلا أي مال.

"سُحْقاً!"، فكَّرتُ، لم يكن هذا هو المقصود من وراء ثقافة الترحيب.

- «والآن؟».

أوضحتُ لهم أنهم سيحتاجون 65 يورو أجرة للعبّارة إلى بيريوس، ثم 40 يورو تذكرة الحافلة على الحدود المقدونية، القطار عبر مقدونيا سيكون مجانيًّا، أيضًا 35 يورو أجرة الحافلة عبر صربيا، بعدها ركوب الحافلات مرة أخرى مجانًا مرورًا بكرواتيا والمجر والنمسا إلى ألمانيا، "مع أملنا أن تتمكنوا من تدبير شؤونكم ليلًا حيث قامت منظمات الإغاثة بنصب المخيمات؛ لكن أحيانًا لا تتسع الأماكن المتاحة فيها للجميع، ورغم ذلك من الممكن تدبير بعض الأطعمة والحفاضات بدءًا من مقدونيا، نعم، إن الحدود مفتوحة الآن، لكن لا أحد يعلم إلى متى ستظل كذلك".

وفي كل مرة كنت أحرص على أن أقول في ختام كلامي: "لكن لا تقولوا لأقاربكم أن يسعوا هم -أيضًا- لبدء الرحلة نفسها، منذ متى تصدقون التلفزيون؟".

كانت مجموعة تالية قد حضرت فعلًا، إنها المجموعة السادسة خلال ساعتين، من جديد أربعون إلى خمسين لاجئًا قد حشروا أنفسهم حشرًا في قارب مطاطي، هذه المرة حضرت عائلات بأكلمها حتى بأطفال رضع، كان بعض اللاجئين يضعون على أكتافهم الأغطية العازلة ذات البريق الذهبي والفضي التي تخشخش مع حركة الرياح، أي أنهم بالفعل كانوا مبتلين تمامًا وساعدهم بعض متطوعي الإغاثة الذين ينتظرون القوارب المطاطية على الساحل الشمالي لجزيرة ليسبوس، في الحقيقة تعيّن عليَّ أن أقفز وأن أُقِلّ كبار السن والأمهات والأطفال على

الأقل إلى المحطة، لا يزال على الشباب أن يمشوا خمسين كيلومترًا حتى الميناء حيث يعسكرون في الجراج إلى أن ينجحوا في تدبير الـ 65 يورو اللازمة مقابل تذكرة العبارة التي ستنقلهم إلى بيريوس.

الأنظمة الأوربيَّة والحدود

لأن المجر قامت بإغلاق الحدود إلى صربيا أمام اللاجئين، سافرنا من بودابست إلى مدينة "شيد" بمحاذاة الحدود الصربية مع كرواتيا، وبمجرد أن وصلنا إلى المعبر الضيق سمحت كرواتيا للاجئين بالعبور بعد أن كانوا قد مكثوا لأيام في المقابر ما بين النقطتين الحدوديتين، رأينا مخلفاتهم بين شواهد القبور: خيام عادية قدمها لهم المتطوعون، الحفاضات، زجاجات مياه، كُتيِّبات تبشير بالدين المسيحي مطبوعة بلغات مختلفة، معلبات فارغة، أغطية، مع كثير من القمامة في الأماكن التي لم تتوافر فيها حاويات جمع القمامة، بعد بضعة كيلومترات إلى الغرب بدأ النظام الأوربي يرجع إلى طبيعته من جديد، كان البوليس الكرواتي يجمع اللاجئين في سيارات الترحيلات ويوصلهم إلى معسكر بالقرب من منطقة أوباتوفاك، لم يبد عليهم الغضب على الإطلاق حين وصلوا، بل بدوا مرتاحين أن الرحلة مستمرة أصلًا، أيضًا أثناء وقوفهم لتسجيل أسمائهم -والذي قد يستغرق ساعات- لم تصدر عنهم أي شكوى، ورغم سوء الأحوال -نحن نتحدث عن معسكر أصغر من أن يستقبل عدة آلاف من اللاجئين الوافدين يوميًا، قد أُقيمَ ارتجاليًا من خيام الجيش في وسط حقل

تهب عليه رياح الخريف الباردة- ورغم ذلك سادت أجواء العمل: لا صوت يرتفع بكلمة، أحيانًا تَنِدُّ ابتسامة هنا أو هناك، وكان ناشطو الإغاثة يُسَرّون عن الأطفال إن اقتضت الضرورة.

أجريت بالصدفة حوارًا مع وزير الداخلية الكرواتي رانكو أوستوجيتش، الذي خرج من سيارة الخدمة مرتديًا بنطلونًا مريحًا مخصصًا للسفر، وكأنه هو -أيضًا- سيبدأ المسير إلى ألمانيا، ثمة ثلاثة أو أربعة من الصحفيين الكرواتيين تم إخطارهم بالزيارة، لكن للأسف لم يتم إخطار ممثلين عن الصحافة العالمية، حتى أنني ذهبت إلى الوزير من دون أن يستوقفني أحد، أكد الوزير أن كرواتيا تعامل اللاجئين معاملة محترمة، وأنه يمكنني بكل سرور أن أحكم بنفسي على كل المراحل، توجد أسِرّة ميدانية، وتغذية كافية، وأطباء بل وحتى أماكن للاستحمام، وكان فخورًا بشكل خاص بأنه لا يوجد أي لاجئ يمكث في كرواتيا أكثر من 24 ساعة، فحين تسمح الإمكانات يتم نقل اللاجئين إلى محطة القطار التالية بمجرد تسجيلهم، حيث تحملهم قطارات خاصة إلى المجر، إلى المجر؟ نعم، إلى المجر، إنها إحدى الغرائب التي نشهدها في هذا العصر الأوربي، إن المجر تباهي ببناء الأسوار والأسلاك الشائكة لتدفع عن نفسها طوفان اللاجئين، في الوقت الذي تسمح فيه لهؤلاء اللاجئين أنفسهم في تكتم شديد بالمرور إلى كرواتيا طالما أنهم سيواصلون فورًا الرحيل إلى النمسا، بل إن دولة المجر تساعد بتوفير حافلات مجانية، وبالطبع من العبث الحديث عن التضامن الأوربي، فمن يشتكي من أن البلدان

الأخرى تتخلص من عبء اللاجئين عن طريق فتح الحدود على مصراعيها يجب تذكيره بأن ألمانيا نفسها وقفت ضد التوزيع العادل للاجئين ما دامت اليونان وإيطاليا تتحملان العبء الأكبر، إن مأساة اللاجئين لم تبدأ في الوقت الذي بدأت ألمانيا تلاحظها فيه.

سألت وزير الداخلية الكرواتي:

- «ماذا كان سيحدث لو أن الألمان أغلقوا حدودهم؟».
- «هذا لا يجوز».
- «لِمَ لا يجوز هذا؟».
- «الناس البائسون إلى هذا الحد لا يمكن لك أن توقفهم، إن مُنعوا النفاذ من نقطة بحثوا عن غيرها، وإذا شَيدتَ أسوارًا فسيظلون جالسين أمامها إلى أن لا تعود قادرًا على تحمل منظرهم، وأخيرًا فإن الطريقة الوحيدة لتوقيف اللاجئين هي إطلاق النار عليهم، لا أحد يريد هذا».

بالطبع فإن هذا يتطلب من ألمانيا أن تقبل أكثر من مليون لاجئ خلال سنة، وبالتأكيد فإن ذلك سيشكل عبئًا على ألمانيا في مواضع كثيرة، قد يكون تقديم المساعدات أكثر قبولًا في الأحياء الراقية والبلديات الثرية، لكن في المناطق التي يعاني فيها الناس بالفعل من البطالة والصراعات الاجتماعية؛ فمن الطبيعي أن يقابل طلب المساعدة بالتذمر حين يضاف إلى طابور المعوزين أجانب

مطلوب إعالتهم، وفي كل الأحوال يجب أن يكون واضحًا ما الذي سيحدث، أو حدث بالفعل في بعض المناطق حين يكون القرار هو استخدام الشدة أو العزل، سيقسو القلب وسيحمل الهم كل الرأي العام الذي كان يعتبر أوربا مشروعًا ونتيجة للتنوير، لن يشاهد الناس شقاء مريعًا فقط على حدود أوربا وإنما -أيضًا- وبشكل مباشر على حدود ألمانيا كذلك، دون أن تمتد له يد المساعدة، من أجل ذلك لابد من شيطنة الأجنبي، سيضطر الألماني أن يكتب له مصيره بنفسه، حتى ثقافته، أو عرقه، أو دينه، لا بد أن يحقر من شأنه في الكتب ووسائل الإعلام، بل وحتى على ملصقات الجدران أيضًا، ودائمًا ما يتم تضخيم الجانب السيء فيه دون سواه، وبهذا يصنع منه بربريًّا، ويتصور أنه بكل ذلك يمنع شقاء هذا اللاجئ من أن يصيبه، هل نريد أوربا أم لا نريدها؟

لم يكن من قبيل الصدفة أن صورة طفل غارق كانت هي التي اخترقت دون غيرها الوعي الجمعي ومهدت طريقًا للتعاطف، فالأطفال يفلتون من آليات التحقير العلني لأنه لا يمكن تحميلهم مسؤولية مصيرهم، إن من لا يرحم طفلًا لا بد أنه قد أحكم إيصاد أبواب قلبه بقوة، يجوز أن يحدث هذا، لكنه لا يحدث من دون أن تتشوه شخصيتك، كل إنسان يستطيع أن يلاحظ عبر التلفزيون كيف أن المستشارة الألمانية كانت مستاءة، كانت جسديًا مستاءة بشكل واضح للناظرين، تذكر فقط التربيتة العفوية التي صدرت عنها لأنها لم تتمكن من إعطاء الفتاة الفلسطينية الباكية سوى الإجابة الصحيحة وهي أنه لن يمكن قبول كل اللاجئين، إلا أن

المستشارة بدت أكثر استرخاءً بعدها بأسابيع حين أخذت صورة ذاتية (سيلفي) إلى جوار اللاجئين، وبدت مرتاحة بشكل مدهش في اللقاءات الحوارية منذ صارت تمثل موقفًا إنسانيًّا متوافقًا مع الرأي العام الألماني، من المفيد أن تعمل صالحًا، حتى أنا، وأنا أبعث التقارير، فهذا -أيضًا- يمثل راحة لي بينما أواصل حياتي المرفهة.

لا يخرج اللاجئون من عربة ترحيلات السجن قبل أن يصلوا إلى أوباتوفاك، وهناك نجد أن طابور التسجيل قد صار أقصر إلى حد ما، أحيانًا يضطرون للانتظار خلف قضبان العربة نصف ساعة أو حتى ساعة كاملة، وهو أفضل لهم من الانتظار في هواء المساء البارد، فقط الأطفال هم من يصعب عليهم الانتظار في الحيز الضيق، يفتح الباب شرطي موكل بعربة السجن، كرواتي الجنسية، مشدود القسمات، تقريبًا في الخمسين من عمره، فتح الباب صامتًا صمتًا تامًّا، صحيح أنه كان يمد يده لمساعدة كبير في السن، أو يرفع طفلًا من العربة، لكنه لم يبتسم قط، مرة واحدة فقط وهو يرفع طفلة سورية ربما ذات خمس سنوات، لها شعر أسود ينسدل حتى كتفيها ونظرة مشرقة ودودة، مسحت بيدها المنبسطة برقة بالغة على زِيّه الأزرق من كتفيه حتى بطنه وكأنها تمسد شيئًا ثمينًا، عندها اغرورقت عيناه بالدموع، الموقف كله لم يستغرق أكثر من ثانية، ولم يزد على أكثر تقدير عن ثانيتين، غير أني كنت واقفًا على بعد متر واحد فقط ورأيته بدقة، رأيت حركات يد الطفلة التي كانت مفاجئة بالنسبة لي

أنا أيضًا، والبلل الذي تجمع في عينيّ الشرطي، وللحظة أطول من المعتاد حمل الشرطي الفتاة بين ذراعيه، فردت على نظراته بنظرات مشرقة وسعيدة، ثم أنزلها فقفزت الفتاة خلف أمها كي تصطف في الطابور، وبينما يمسح الشرطي العبرات من عينيه لاحظ أني أراقب المشهد، فنظر في الحال بعيدًا، وكأنني باغته وهو يفعل فعلة غير مقبولة.

- «لا تخجل».

- كم كنت أود لو أنني صِحْتُ: "لا تخجل".

الصدمة الحضاريَّة

ذهبت اليوم إلى الفنار في القمة الشمالية الغربية لليسبوس عبر طريق غير ممهدة بصحبة المصور مُويْزز زامان الذي يرافقني في هذه الرحلة، هنا -أيضًا- تصل قوارب كثيرة، لكن لم نجد أيًّا من متطوعي الإغاثة في مدى النظر، إنه منظر غريب، وأحيانًا ما يكون مروعًا حين يصل اللاجئون فيجدون ترحيبًا حارًّا من رجال طويلي الشعر، أو سيدات بالكاد يسترن أبدانهن، يرتدين سترات نجاة صفراء فاقعة ويصِحن مرحبات باللغة الإنجليزية (welcome welcome)!!! لو كنت أفغانيًّا لربما عدت أدراجي إن استقبلت بمثل هذا الود الغريب.

ياله من ظلم فادح! رغم كل اللامبالاة من الدولة اليونانية -ألا تحكم في اليونان حكومة يسارية؟- فإن المتطوعين يؤدون عملًا جليلًا في ليسبوس، يحملون الملابس الثقيلة ويحضِّرون الأغطية الواقية ذات البريق الذهبي والفضي، ويوزعون السندويتشات والمياه، وينصبون الخيام ليجدها اللاجئون حين يكون الوقت متأخرًا لمواصلة الرحيل، وفيهم أطباء تخلوا عن إجازتهم من أجل المشاركة في أعمال الإغاثة، فيعالجون الجرحى ويهدِّؤون

من روع المصابين بالصدمة، ومن الأمور التي تؤثر في النفس -أيضًا- مراقبة اختلاط الثقافات فيما بين المساعدين، حتى المتطوعون في منظمات العمل الأهلية الإسرائيلية والإسلامية يجلسون معًا في الحانة مساء، إلا أن أكثر ما يدهشني هو أنه إلى جانب المساعدين المحترفين القليلين، والنشطاء السياسيين، تقريبًا لا يوجد، سواء بين المتطوعين في لسيبوس، أو في المحطات الحدودية على طول درب اللجوء، سوى الشباب في سن العشرين أو الخامسة والعشرين، أي في نفس سن اللاجئين، أي أنه الجيل الذي كثيرًا ما نعيب عليه عدم اهتمامه بالسياسة ونصفه بالأنانية، لماذا تحتاج أوربا لهذا؟ لا أعتقد أنك بعد هذه الدورة المكثفة في خبرة الحياة والسياسة الدولية ستكون في حاجة إلى خطبة الأحد لتعرف: من كل قارب من القوارب يقفز خوف الموت ودموع الفرح، أزمة البقاء وامتنان النجاة، دعوات حارة وأسئلة ملحة، إنها مواقف تشكل في كل مرة، حتى لدى نشطاء الإغاثة، خبرة تستنزف أقصى ما لهم من طاقة بدنية ونفسية، على سبيل المثال حين يحملون رضيعًا ليوصلوه حذرين إلى الشاطئ عبر الصخور الزلقة، ويتحدثون معه ليطمئنوه في أثناء ذلك ويضمونه إلى صدرهم بكلتا الذراعين حتى يشعر بالدفء والطمأنينة، إلى أن يقف أبواه إلى جوارهم غارقين في الابتلال تمامًا، مرتجفين من البرد والسعادة؛ حينها تنتابك المشاعر الكبيرة جدًّا وتمسك بتلابيبك رغمًا عنك الدموع، والعطف، والغضب من سياسة اللجوء السياسي الأوربية الشنيعة التي تعذب الباحثين عن الأمان

بطقوس القبول وتعرض حياتهم للخطر، إن الوضع تمامًا مثل ما قالت إيفا، وكل المساعدين يؤكدون حقيقة واحدة: "إنهم يتأثرون بشكل شخصي، وإن اللقاءات الإنسانية المباشرة تزلزل كيانهم، وإن الشباب الذين تطوعوا من أجل إغاثة اللاجئين لن يتمكنوا بسهولة من نسيان الوضع المزري خارج أوربا".

ورغم ذلك يُظهِر بعض الأفراد وخصوصًا من النشطاء السياسيين نوعًا من الرياء، ومن الوصاية الأبوية تجاه اللاجئين، بل إنهم يدّعون بطريقة لا تخلو من عدوانية أنهم أدرى بمصلحة اللاجئين لدرجة قد يتمنى معها المرء استدعاء روح "رابطة الإغاثة التابعة للعمال"[1]القديمة أو "جيش الخلاص"[2] الطيب، وأكثر من مرة ينتابني السؤال: "لماذا يمد الكثيرون يد العون للاجئين الذين رسوا هنا، بينما في المناطق الداخلية البعيدة عن السواحل، حيث لا تُجازى المعونة بفيض من المشاعر الكبيرة، نجد أنه لا يعمل سوى عدد قليل من المتطوعين في أعمال الإغاثة، أحيانًا يمكن مشاهدة الأثر الطيب في النفس للفعل الطيب كذلك على الساحل الشمالي في ليسبوس، إن الشباب المزدانين

1- Arbeiter-Samariter-Bund : اتحاد من عدة منظمات تطوعية مستقلة عاملة في مجال الإغاثة والرعاية الاجتماعية، تأسست عام 1888 في ألمانيا بمبادرة من العمال والحرفيين لإغاثتهم في حالات الطوارئ وتعليمهم الإسعافات الأولية، ينتشر عملها اليوم في ألمانيا والنمسا وتتميز بشعار الصليب الذهبي الذي يحوي حرف S . (المترجمة)

2- Heilsarmee أو The Salvation Army : حركة دولية عاملة في مجال الرعاية الاجتماعية والتبشير المسيحي تأسست في لندن عام 1865 ولها اليوم فروع في 127 دولة، تعتبر رعاية المشردين والمدمنين والمعاقين من أبرز أنشطتها. (المترجمة)

بالوشوم أو السيدات المرتديات ملابس خفيفة لا يخطر ببالهم سؤال حول مفهوم الحرية، وإن كان يختلف لديهم عن مفهومها لدى الأفغاني أو السوري، إنهم يحضنون الكل بغض النظر عن جنسهم صائحين بالإنجليزية"مرحبًا مرحبًا".

حسنٌ، من ناحية أخرى ثمة صدمة ثقافية يعايشها كثير من اللاجئين بمجرد وصولهم، وربما تكون تحضيرًا مثاليًّا للدخول في الغرب الأوربي الحر حرية غريبة جدًّا، فالمراسلون وخصوصًا المصورين الذين يقفون هم -أيضًا- بأعداد كبيرة على الساحل الشمالي في انتظار اللاجئين لا يجسدون بالضرورة التعاطف ورِقَّة الإحساس، إنهم يركضون بكاميراتهم إلى المياه ليكونوا أول من يصل إلى القوارب، ويصرخون في المغيثين كي يخرجوا من كادر الصورة، في اليومين الماضيين منذ وصلت إلى ليسبوس شاهدت مشاحناتومشاجرات حقيقية بين المُغيثين والمصورين، أنا نفسي عُصِرت عصرًا من قِبل فريق تصوير لأني عطلت الطريق لثلاث دقائق من أجل أن أسمح للسيدات المبتلات والأطفال بالصعود إلى العربة "الجيب"، طبعًا ليس كل المصورين يعملون بهذه القسوة، وليس منهم مويزز زامان بكل التأكيد رغم أنه -أيضًا- ذو تصميم وعزيمة، ولهذا يذهب إلى الركن الشمالي الغربي للجزيرة بحيث لا يقف في طريق أحد، أما إحساسه بأن عليه أن يقدم يد العون فليس مطلوبًا أن يتخلى عنه بسرعة؛ لأنه يتعين عليه إنجاز مهمة أخرى، ربما في السياسة -أيضًا- لا يكون من الصحيح دائمًا اتباع الإحساس الأول حين

يريد المرء أن يقدم المساعدة، على الأقل في أحيان كثيرة، لكن متى؟ على الإنسان أن يتخيل حال آلاف البائسين على الطريق في المجر وبشكل ملموس: أين كان يمكن أن يناموا؟ من كان يمكن أن يمدهم بالزاد؟ ما هي الوسيلة العنيفة التي يمكن أن توقفهم على الحدود لو لم تفتح ألمانيا حدودها؟ لكن هذه الرغبة غير المتوقعة في المساعدة تحولت لتصير وكأنها دعوة مرسلة بالبريد لا يزال يبثها التلفزيون الأفغاني.

للأسف الرياح عاصفة اليوم، و الزَّبد يُغطي صفحة البحر، أم هل يتعين أن نشعر بالارتياح حين لا تعبر أي قوارب؟ تتعلق أنظارنا بلا جدوى بالنقاط الحمراء التي تتجمع حولها سترات السباحة من بعيد، في الأيام العادية يبلغ عدد اللاجئين الذين يرسون على الساحل الشمالي ثلاثة بل حتى أربعة آلاف لاجئ، وعلى الأغلب تجد أنه في أقل من عدة ساعات تمتلئ بقعة من الشاطئ لا تزيد عن كيلومترات قليلة بمئات من القوارب المطاطية، وقد غطت سترات النجاة والعوامات وبقايا القوارب المطاطية حصى الشاطئ أسفل الفنار مباشرة بشكل كامل، حين ينظر المرء من هنا على امتداد الشاطئ يجد ليسبوس تضوي باللونين الأحمر والبرتقالي لعدة كيلومترات؛ إنها ألوان سترات النجاة، على أي حال ليس كل شيء يبقى؛ في أي مكان ترسو فيه القوارب، تسير عربة "بيك آب" (Pickup) يحمل فيها سائقها محرك القارب وأرضيته الصناعية الصلبة، ولا يتبقى سوى الخرطوم الأسود، أما اللاجئون الذين يتجمعون لبدء الانطلاق فلا تحملهم السيارة "البيك آب"، وهذا

يعطي انطباعًا بالقسوة بنفس الدرجة التي يعطيها طموحنا نحن المراسلين الذين يسعون لالتقاط صور المشاعر العظيمة، إلا أن هذا كله يصير مفهومًا يومًا بعد يوم حين يحاول المرء أن يتابع عمله، أما السكان المحليون فهم ليسوا هنا لتأدية مهمة قصيرة الأجل، وإنما يعملون بشكل مستمر وهو أمر من شأنه أن يجلب الفتور والتبلد، بل أني ألاحظ ذلك عليّ أنا نفسي: أنا لا أستطيع أن أنقل اللاجئين طوال اليوم من هنا لهناك، أو أن أقوم بالترجمة الفورية لهم حين لا يزال يتعين عليّ أن أكتب، وعادة أمر من جوارهم بلا اهتمام.

دخلت في نقاش مع مويزز في اليوم الأول؛ لأني أردت أن أنقل اللاجئين الذين رسوا على شاطئ مهجور بالسيارة إلى الميناء، غير أنه أصر أننا ما جئنا لأجل هذه المهمة، وجدت أن الحق معه وصعدت إلى "الجيب" شاعرًا بوخز الضمير دون أن آخذ لاجئين معي، ثم سقطت السيارة في حفرة بعد ذلك بقليل، وما الذي حدث؟ السوريون الذين خرجوا قبل نصف ساعة من القوارب المطاطية رفعوا السيارة "الجيب" دون أن نطلب منهم وأعادوها على الطريق مرة أخرى، ومن حسن الحظ أن عددًا كافيًا من الشباب كان موجودًا.

في وسط المدينة

تستمر الحياة في بلجراد كما هي مستمرة في ليسبوس، وهنا يعسكر اللاجئون في خيام على المساحات الخضراء أمام محطة القطار، أي في وسط المدينة، إن شئنا الدقة لقد كانت مساحات خضراء سابقًا لأن الأرض لم تعد تغطيها إلا تربة عارية، حين وصلنا في المساء كان انهمار المطر شديدًا، ولم يكن من الممكن مشاهدة شيء سوى خيام المعسكر الملونة والتي بدت مثل حبات فطر كبيرة الحجم تحت الأشجار، ثم لاحظنا أن جدران الخيام تتحرك هنا وهناك، ثم تغلق، وأن وراءها أناس يجلسون ملتصقين بعضهم ببعض، ثم اكتشفنا وجود لاجئين آخرين حين نظرنا أعلى الجراج متعدد الطوابق، كانوا يجلسون القرفصاء ما بين السيارات ملتفين في أغطية بنية اللون، سرعان ما يصاب المرء باعتلال المناخ[1] إذا ما فرَّ هاربًا إلى أوربا، إنه ليس البلل فحسب، وليست البرودة فحسب بل -أيضًا- الوحل، الوسخ الذي تجلبه كل زخَّة مطر، أين سيجففون أبدانهم؟ أين سيتحممون؟ متى

1- عرض بدني مرتبط بأحوال الطقس مثل الرطوبة أو درجة الحرارة أو الضغط أوهبوب العواصف، حيث تتأثر الحالة المزاجية تأثيرًا بالغًا مثل زيادة حالات النعاس وارتفاع معدلات القلق والارتياب كما تتراجع حدة الذاكرة. (المترجمة)

ستكون المرة القادمة التي سيتمكنون فيها من تبديل ثيابهم؟ وكيف سيصير الحال عندما يدخل الخريف بكامل عنفوانه؟

منذ بداية العام يتجمع اللاجئون في وسط بلجراد، وقد يبلغ عددهم أحيانًا عدة آلاف، وهوعدد لم يتم فيه حساب أولئك الذين يبيتون في الفنادق الصغيرة، أما الآن فلا يزال المئات منهم يعسكرون أمام محطة القطارات رغم أن الطريق إلى كرواتيا وبعدها إلى ألمانيا قد صار مفتوحًا، إنهم الأفقر ناهيك عن أنهم جميعًا أفغان؛ إنهم حتى لا يملكون عشرة يورو ثمن تذكرة الحافلة المتجهة إلى "شيد"، يمدهم المتطوعون والصليب الأحمر بالغذاء والملابس، أما إدارة المدينة فقد وفرت دورات مياه متنقلة وجهزت عيادة طبية في إحدى الخيام، أما الدولة نفسها فلم تقدم شيئًا، رغم أنه من السهل نقل عدة مئات أو عدة آلاف من اللاجئين إلى الحدود، فهم -أيضًا- لا يرغبون في شيء مثل رغبتهم في الرحيل، لكن يبدو أن صربيا قد اعتادت هذا المنظر منذ وقت بعيد، وحين عدنا مع شروق شمس اليوم التالي إلى المنتزه، ذلك الذي اعتبرته إحدى الشخصيات الألمانية العامة مثالًا صارخًا على فشل الدولة، وطوفان اللاجئين، والفوضى العارمة، دهشت إذ وجدت كل المحلات والمقاهي حوله مفتوحة، وحركة المرور مزدحمة بشكل طبيعي، وأرصفة الشوارع تعج بالبشر مثل كل يوم، يؤكد الأفغان أن قلة قليلة فقط من سكان بلجراد أظهرت لهم العداء، بالطبع هذه -أيضًا- واحدة من الاحتمالات الممكنة في التعامل مع اللاجئين: "لا أنت تشيطنهم ولا أنت تهتم بأمرهم، بل

ببساطة تتركهم بمفردهم يواجهون مصيرهم المحتوم".

وعلى حافة أحد المنتزهات رأيت صبيًا داكن البشرة لا يكاد يبلغ السادسة عشر مختبئًا وراء شجيرة راقدًا أسفل واحد من الأغطية البنية، كان شعره أشعثَ واقفًا وكأنه قام بدهنه بالجِل بينما الوحل يغطي وجهه وأطرافه، كان جسده يرتعد من البرد، ويئن بشكل موجع في أثناء نومه، أما أكثر ما هالني فقد كان منظر أقدامه العارية، لا تكاد توجد قطعة جلد سليمة، فكله متيبس ممتلئ بمسمار القدم (الكالو)، أوعليه بقع زرقاء وبثور متقيحة، سألت نفسي ترى كم من الوقت ومن أي بلد سار هذا الصبي إلى بلجراد، ولِمَ لَمْ يجد بالأمس مكانًا يأوي إليه في الخيام أو في الجراج؟ ولأنني تصورت أنه من البشتون، توجهت إلى الأفغان المعسكرين في الجوار ورجوتهم أن يأتوا معي ليروا الصبي، ربما عرفوا مِمَّ يعاني، لكن لا أحد تعرف على الصبي، في النهاية قمنا بهزِّه من أجل أن نوقظه ونأخذه إلى العيادة الطبية على الطرف الآخر من المنتزه، وحين فتح الصبي عينيه كان في حالة من الهذيان، ولعله اعتبرنا أشباحًا في حلم، نطق بضع جمل من بين الأنين، ثم اتضح لي أن الصبي يتحدث الصربية، الغجر -أيضًا- يلجؤون إلى هنا منذ عدة سنوات.

الطريق السريع إلى ألمانيا

عُدْتُ إلى موقعي من الشرفة أربط ما بين الحكايات التي سمعتها باللاجئين الذين يمرون من طريق الفندق، إنهم -الآن تحديدًا- سوريون أو عراقيون، عدد الشباب كبير هذه المرة، والشابات لا يرتدين الحجاب، لو أنهم ارتدوا فوق ملابسهم السترات فاقعة اللون التي يرتديها المتطوعون لما استطعت أن تميزهم عنهم من ناحية المظهر الخارجي، فتصفيفات الشعر وماركات الجينز وماركات الأحذية الرياضية، ثم نظارات الشمس وسماعات الأذن التي يسمعون الموسيقى منها تفيد أنهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى العالمية، حتى حقائب الظهر هي ذاتها التي يستعملها الشباب في الغرب حين يرتحلون، إن هؤلاء ليسوا من الفقراء الذين يعانون فقرًا مدقعًا الذين يشكِّلون الغالبية العظمى من اللاجئين، وهم على الأرجح سيتمكنون من تدبير ثمن المبيت في نزل الشباب في ميتيليني بدلًا من قضاء الليل في الميناء، وسينجحون أسرع في أوربا، فقط لأنهم يتحدثون الإنجليزية ويمتلكون الهواتف الذكية، ورغم هذا فإن لكل منهم حكاية فيها من المأساوية والشقاء والعنف ما لا تعرفه الحياة الأوربية الغربية، براميل متفجرة دكت مدنهم، مصلوبون تركت جثثهم

معلقة أيامًا بكاملها، تعذيب بسبب مسرحية تنتقد الأوضاع، إن الحرب مستعرة على الحدود الجنوبية الشرقية لجيتو الرفاهة الذي نعيش فيه، وكل لاجئ يمثل لنا مبعوثًا من هناك، إنهم يمثلون بزوغ تلك الحقيقة في وعينا.

وبمجرد أن يقطعوا المسيرة إلى الميناء بسلام سنجدهم بعد ستة أو سبعة أيام يخرجون في محطة قطار ألمانية، هم أنفسهم لا يتصورون كيف ستصبح الأوضاع أكثر كرمًا بعد أن يصلوا إلى بيريوس، سيتوجهون بالحافلات مباشرة إلى الحدود المقدونية، ثم يسيرون من اثنين إلى ثلاثة كيلومترات عبر منطقة غير مأهولة، حيث يتم تسجيل أسمائهم ثم يصعدون بعد التسجيل إلى الحافلات، وتتكرر المسألة على الحدود الكرواتية، والمجرية والنمساوية، الفرق أنهم بدءًا من هنا لن يكونوا مضطرين إلى عبور الحدود سيرًا على الأقدام، وإنما يتم توفير وسائل انتقال من أجلهم، وكل ذلك يشكل طريقًا سريعًا متجهًا إلى ألمانيا أنشأته دول الحدود للاجئين، وحقًّا وصدقًا كان كل من أتحدث معه يريد الذهاب إلى ألمانيا، والقليل منهم فقط سيواصل الرحلة من ألمانيا إلى الدول الإسكندنافية أو إلى بلاد أخرى لهم فيها عائلات، لا يفرق اللاجئون ما بين النقاط التي يتوقفون فيها، بالتأكيد تتبدل أزياء الشرطة الموحدة وتتبدل لغات الموظفين، لكن تظل المعسكرات الميدانية متشابهة، والخيام والحاويات، تتشابه الأغطية البُنِّية، وواقيات المطر الشفافة، والمظلات التي توزعها مفوضيةاللاجئين التابعة للأمم المتحدة، يتشابه رجال الشرطة

والجنود الذين يتصرفون وكأنه قد صدر إليهم أمر أوربي موحد بالتعامل مع اللاجئين بدون ود خاص، لكن -أيضًا- بلا قلة ذوق، كذلك يتشابه متطوعو الإغاثة في ستراتهم الصفراء الفاقعة وهم ينظمون عمليات تزويدهم بالطعام والحفاضات والملابس الثقيلة ومقابس الكهرباء لشحن الهواتف المحمولة، في كل مكان يتشابه الأطباء بلا حدود بسماعاتهم، وكذلك المبشرون المسيحيون بما يوزعونه من كتيبات دعائية، وفي كل محطة ارتُجلت، وفي كل محطة قطار ترانزيت ما بين بيريوس وميونخ، ستجد دورات المياه المتنقلة ذات اللون الأزرق السماوي، لقد توحدت الإرادة الأوربية حتى في عدم السماح للاجئين بقضاء حاجتهم في عراء الحقول وإنما في تلك الكابينات البلاستيكية النتنة القذرة لأيام وأسابيع، إن دورات المياه المتنقلة تلك لهي العلامة المميزة للإنسانية الأوربية.

كذلك وفي كل المحطات على طريق اللجوء ظهر نشاط اقتصادي صغير متعدد الثقافات، إذ فجأة يباع البيلاف[1] الأفغاني في قرية صربية قصيّة، ويقدم الشاي في مقهى مقدوني، ويعلن في براج باللغة العربية -أيضًا- عن سعر حلاقة الشعر، أو عن فندق صغير، يرفع سائقو التاكسي أسعارهم بصورة كبيرة، وحين يكون السعر الرسمي للرحلة عبر صربيا 30 يورو يتعين على اللاجئين أن يدفعوا 35 يورو بمجرد ركوبهم الباص، إن هذه

1- نوع من الأرز. (المترجمة)

التسعيرات الإضافية لا تشكل شيئًا مقارنة بالأرباح الطائلة التي يجنيها المهربون، فهم يتقاضون أكثر من خمسين ألف يورو عن كل قارب مطاطي، يكون قد كلفهم اثنين أو ثلاثة آلاف، وغالبًا ما يخدعون اللاجئين، فيبيعون أماكن أكثر على القارب رغم الازدحام الشديد، لدرجة تجبر اللاجئين على التخلص من أمتعتهم كلها.

حتى رجال الشرطة الحدودية يتربّحون من ورائهم إذا ما اختاروا أن يغضّوا الطرف عن مرور البعض، لقد ضرب الذعر العالم كله في الصيف بعد انتشار صور الحدود ما بين اليونان ومقدونيا حين طورد اللاجئون باستخدام الهراوات، والغاز المسيل للدموع، والقنابل المسببة للعمى، بل وحتى بالرصاص الحي، لكن المافيا المحلية تربحت من ذلك، حيث دبرت عبور كل قادر على دفع الثمن، ثمة تقارير عدة تفيد أن السلطات المقدونية تعمدت غلق الحدود من أجل أن تشارك في الأرباح، وبغض النظر عن صحة هذا الكلام، لا يجادل أي من المسؤولين الذين قابلتهم في أن نظام اللجوء السياسي في أوربا هو ضرب من الجنون، لكن علينا -أيضًا- أن نقف على سبب هذا الجنون؛ إذ ليس للاجئين إمكانية لدخول أوربا سوى الهجرة غير المشروعة، فالاتفاقات الأوربية الخاصة بطلبات اللجوء ليست أكثر من دعم ضخم على مستوى الدول لصناعة جلب اللاجئين.

وواقع الحال يفيد أن ليس المهربون وحدهم المستفيدين، لكن -أيضًا- اليمينيون الشعبويون الذين يستغلون الفوضى

العارمة عند الحدود متخذينها دليلًا على انهيار الغرب، ولأنهم يريدون القضاء تحديدًا على انفتاح أوربا فإن الحكومة المجرية وحكومات أخرى قومية التوجه ترفض مقترحات اللجنة الأورربية بتدبير طرق آمنة للهروب وتوزيع اللاجئين على الدول الأعضاء بالاتحاد، وبذلك يمكن القول إن الأصوات العالية التي ترغي وتزبَد مُندِّدة بالفوضى الضاربة على درب اللجوء كلهتدعم الهجرات غير المنظمة؛ لأنها تشيِّد الأسوار، وتترك اللاجئين بدون رعاية، وغالبًا دون تسجيل أسمائهم ملقية بهم على حدودها الخارجية، وبالنظر لمثل تلك الأنانية العقيمة فإن الأمر يبدو لي وطنيًّا بالكاد خصوصًا حين تقوم قطاعات من الحكومة الألمانية الاتحادية بتدعيم النشاط الذي يقوم به فيكتور أوربان من أجل التبرؤ من السياسة التي تنتهجها الحكومة ذاتها ومن استعداد كثير من الألمان للمساعدة، وبدلًا من تشييد الأسوار علينا أن نعمل من أجل أوربا تستطيع أن تتغلب على هذه الأزمة فقط عن طريق التضامن، وهذا ينطبق على استقبال اللاجئين، لكنه ينطبق بقدر أكبر على أسباب اللجوء؛ إذ إن فقط أوربا قوية موحدة وداعمة للحرية هي التي تستطيع أن تهدئ الأوضاع وتدعم السلام في العالم الذي يهرب منه البشر إلينا.

صحيح أنه لا توجد وصفة سحرية يمكن أن تجعل أزمة اللاجئين تتبخر في الهواء، خصوصًا أن الحرب والشقاء اقتربا بدرجة كبيرة من أوربا لدرجة لم نعد نناقش معها أسباب الهروب الأعمق مثل التصحر -كنتيجة من نتائج تغير المناخ- والتي تدمر

عامًا بعد الآخر أراض زراعية في حجم سويسرا، في الوقت نفسه ثمة مقترحات عملية من الممكن أن تسيطر على حركات الهجرة وتنظمها بشكل أفضل، ومن ضمن ذلك الفصل النهائي ما بين طلب الهجرة وطلب اللجوء السياسي، ومن ضمن ذلك -أيضًا- توسيع اتفاقيات جنيف الخاصة باللاجئين كي تعترف -أيضًا- بأسباب اللجوء التي تفرضها التغييرات المناخية، وبينما من المقبول أن تمنح الموافقات علىطلبات الهجرة حسب احتياجات البلاد المستقبلة، ينبغي أن يضع متخذ القرار في شأن اللجوء السياسي مصلحة محتاجي الحماية في المقام الأول والأخير، إن ذلك من شأنه أن يخفف الضغط على الحدود الخارجية بشكل محسوس وبالتالي سيتمكن من إعادة توفير الحماية لها، وذلك لأن مَن تنطبق عليه شروط الهجرة لن يضيّع وقته وأمواله في مخاطرة الهروب وإنما سيستثمرهما في العمل على تنمية مؤهلاته واكتساب اللغة، أما المسألة الأكثر إلحاحًا فهي دعم اللاجئين بالقرب من موطنهم الأصلي، أي بشكل عملي في المخيمات الموجودة بالفعل حول سوريا وشمال العراق؛ لأن الكثيرين ينتظرون العودة إلى وطنهم، أو سيفضلون قضاء فترة المنفى في ثقافة ولغة مألوفة لهم، فقط لو أن ثمة فرصًا للبقاء في الدول المجاورة، فقبول حقيقة أننا نرد الناس أو نطردهم حين لا يكونوا مهددين أو حين لا تتوافر فرص للعمل من أجلهم لأمر وقعه ثقيل عليّ مثل ثقله على طفل من أطفال المهاجرين، غير أنه ينتمي إلى السياسة الواقعية.

أما اللاواقعي واللاعقلاني حقًّا؛ لأنه أمر نقضته التجربة العملية أكثر من مرة، فهو تصور أن مشكلة اللاجئين تحل عن طريق إقصائهم، فطالما ظلت فرص التقديم على الهجرة بشكل شرعي منعدمة، وطالما ظل اللاجئون يمنعون من التقديم على طلب اللجوء السياسي على الحدود الأوربية، سيظلون جميعًا يركبون القوارب المطاطية؛ وحين تحاول أوربا توقيفهم مثلما كانت تفعل سابقًا باستخدام السفن الحربية فستتخذ القوارب الطرق الأطول الأكثر خطورة التي تبعد مئات الكيلومترات بعرض البحر المتوسط أو عبر المحيط الأطلنطي وجزر الكاناريا، لنجد أننا من جديد قد أصابنا الذعر من أخبار الغرقى، مرة مائتان، مرة ستمائة، كل سنة عدة آلاف من الموتى أمام حدودنا، بالطبع بينهم أطفال، سنرى صورهم، وهي حقيقة لن نستطيع أبدًا طردها من وعينا.

أمواج هوجاء

تعد مدينة ميتيليني اليونانية أول مدينة ساحلية تلوذ إليها دولة أفغانستان الحبيسة،[1] وعلى طريق الكورنيش الذي لا يرتاده عادة سوى السائحون ذهابًا وإيابًا رأيت اليوم أفغانًا، هم -أيضًا- في مزاج يليق بالإجازات، هذا حين تنظر إليهم للوهلة الأولى، أكثرهم سرورًا هم العائلات لأن الأطفال يدفعون آبائهم إلى الضحك، أما العيون المتسعة اندهاشًا فتجدها عيون الصغار الذين يجلسون في عربات الأطفال، لست متيقنًا إن كانوا قد اشتروها، أم استعاروها، أو لعلها أُهديت إليهم؟ وحين يحصلون على الآيس كريم كهدية إضافية تشرق وجوههم مثل كل أطفال العالم، في هذه اللحظة يجلس الشبان على السور المبني على الطراز الإيطالي ويبدو أنهم قد حلقوا ذقونهم منذ قليل، أما شعرهم اللامع فقد صففوهمقلدين نجوم الكرة أوالغناء عندنا، ومن يمتلك هاتفًا ذكيًا تراه ينقر بقدميه على وقع الموسيقى التي يسمعها، ربما للمرة الأولى من بدء رحلتهم يكون لدى اللاجئين

1- الدولة الحبيسة هي الدولة ذات السيادة المحاطة باليابسة بالكامل أو التي تقع سواحلها الوحيدة على البحار المغلقة، تحد أفغانستان ست دول هي: إيران، تركمانستان، أوزباكستان، طاجيكستان، الصين، باكستان، الهند. (المترجمة)

بعض الوقت للاستجمام، وللنظر الفضولي والاندهاش: من كل القوارب الشراعية، كل هذه البوتيكات، والمطاعم والمقاهي الأنيقة، القلة القليلة فقط هي من تقدر على ثمن المبيت في فندق، لكن الغالبية العظمى قد اعتادت بالفعل على النوم في الشارع، ثمن الخيمة ثلاثون يورو، أما كيس النوم فثمنه 10 يورو، بينما تكلف المرتبة التي تجعل الأسفلت قابلًا قليلًا للتحمل فثمنها 5 يورو، في الوقت نفسه لا زالت محلات البضائع التذكارية في ميتيليني تحقق أرباحًا صغيرة بعد أن وسعت معروضاتها لتشمل معدات التخييم.

على النقيض من ذلك فإن المطاعم والمقاهي فارغة تمامًا، فأين هو ذلك الأفغاني الذي يستطيع أن يدفع 3 يورو مقابل فنجان كابوتشينو، في الوقت الذي يبلغ فيه أجر طبيب أفغاني 3 يورو في اليوم؟

"لا توجد تليفونات، لا يوجد وايفاي، لا توجد دورات مياه"، كلمات مكتوبة على ورقة مقاس A4 معلقة على كل الفاترينات والأبواب بل وحتى الأكشاك، إن ثقافة الترحيب غير منتشرة هنا خاصة عندما نعلم أن غياب السائحين أدى إلى فقد السكان لمصدر الدخل الأساسي، لكن ما أثار دهشتي حقًّا هو الود الذي ظل يعلو إيماءات ويطل من نظرات السكان المحليين، يجلس بعضهم موزعين هنا وهناك على الطاولات ويتعجبون بدورهم من كل الوجوه الغريبة التي تمر من أمامهم، فإلى جانب الأفغان ثمة

عرب بالطبع، وأناس من بنجلاديش، والتاميل، وبعض الإفريقيين السود الذين ترتدي نسائهم أزياء بألوان مشرقة، في ميتيليني يشم اللاجئون لأول مرة أريجالسلام، لا يبدو الانتظار هنا -إلى أن يتم تدبير مكان على العبّارة التي ستقلهم إلى بيريوس- محفوفًا بالشك والخوف مثلما كان الحال في المحطات السابقة، بل بالارتياح والأمل.

نحن كذلك سنشتري تذكرة، لكنها تذكرة سفينة صغيرة تحملنا في الاتجاه المعاكس إلى آيفاليك على الساحل التركي، إن المسافة التي تكلف اللاجئين ثروتهم وخفقان قلوبهم، بل وحياتهم أحيانًا، ستكلفنا نحن بضعة يوروهات معدودات، بل وسنحصل بها -أيضًا- على مكان على سطح السفينة ونستمتع بشاي العصاري، لقد تحول ميناء ميتيليني إلى مقر مفتوح لإيواء اللاجئين: تنتشر الحاويات هنا وهناك التي يحتجب وراءها اللاجئون؛ البحر صار مسبحًا مفتوحًا للشباب؛ وطبعًا الحمامات المتنقلة الزرقاء التي لا يمكن تجنبها، وعبر باب غير مرئي يظل دائمًا مغلقًا في وجه اللاجئين-رغم أن أسبابهم في الرحيل أكثر إلحاحًا- ننجح نحن في دخول مبنى الميناء، حيث يتم فحص جوازات السفر، لا تستغرق المسألة أكثر من نظرة على الوثيقة وعلى الوجه، إن كان الانتماء لطبقة معينة هوالذي فرّق ما بين الناس في الماضي، فقد صار الانتماء لدولة، وحقوق الإقامة، هو ما يصنف الناس اليوم إلبشر من الطبقة الأولى أو الثانية أو الثالثة، من الصعب أن يستشعر مواطن أوربي غربي ما تعنيه

الحدود بالنسبة لمواطن دولة فقيرة أو دولة ضربتها المجاعة، ناهيك عن أن يصير المواطن لاجئًا أو بلا دولة.

نغادر المبنى من الناحية الأخرى فنجد أنفسنا من جديدفي جزء من الميناء يحيطه السياج، نظيف، يكاد يكون فارغًا، تصطف أمام سفينتنا محركات القوارب الصغيرة، المحركات التي جمعتها سيارات "البيك آب" من الساحل الشمالي، كان عددها بالعشرات، أو بالمئات، لا أستغرب أننا نسمع مرارًا وتكرارًا عن المحركات التي تتعطل في البحر المفتوح عندما يتم بيعها عدة مرات بواسطة المهربين، وبمجرد أن أبحرت سفينتنا الصغيرة من الميناء لمحنا العبارة الضخمة على الناحية الأخرى منالرصيف البحري، ربما فقط لأنني رأيت أعدادًا كبيرة جدًّا من اللاجئين ذكّرني منظرها بمنظر الحوت، يمثل سقفها الرفيع زعنفته، والمدخنة يستعملها لتنفسه، أما بابها المفضي إلى العنبر فبدا بفتحته الكبيرة مثل فم مفتوح عن آخره، ترى هل تتداعى نفس الصورة لكل من يقرأ الإنجيل؟ ربما يكون التفكير في سفينة نوح هو الأقرب إلى الصواب، خصوصًا أن طابورًا طويلًا يبدو أنه بلا نهاية قد تشكل بالفعل رغم أن العبارة لا تغادر قبل منتصف الليل، وعلى العكس من موقف النبي يونس، فإن هؤلاء مصطفين في انتظارالسماح لهم بالدخول إلى بطن الحوت.

من المفترض أن تستغرق الرحلة ساعة ونصف فقط، لذا أسند ظهري إلى الوراء وأغلق عيني لأستمتع بهواء البحر، والأرجحة

الناعمة على صفحة المياه، والدفء الذي ترسله آخر شعاعات شمس النهار، حين استيقظت وجدتني بمفردي على سطح السفينة، إن ما بدا كنسيم لطيف على الشاطئ انقلب إلى عاصفة باردة في عرض البحر المفتوح، وعليّ أن أنحني داخلها كي أتمكن من التقدم إلى الأمام، أما الموجات الناعمة فقد تحولت إلى موجات عالية كالجبال تدفع بالمياه إلى خمسة أمتار فوق السطح، ومنأجل أن أشعر ولو مرة واحدة على الأقل بمشاعر اللاجئين الذين يعبرون نفس البحر بقوارب مطاطية منخفضة نزلت درجات على السلم وعلقت نفسي على الشفير[1]، وحين وصلت إلى مقدمة السفينة كان عليَّ أن أتشبث بكلتا يدي، فكل موجة ترفع السفينة إلى الأعلى ثم تلقي بها مرة أخرى، وبعد لحظة واحدة كنت غارقًا في البلل من قمة رأسي إلى أخمص قدمي وشعرت بالرياح على بشرتي باردة برودة الجليد، واللاجئون لا يفصلهم عن المياه سوى غلالة بلاستيكية رقيقة ويجلسون متلاصقين بحيث لا يمكنهم التعلق بأي شيء سوى ظهر الرجل أو السيدة الذي يجلس أمامهم كي لا يسقطون في البحر، وحتى في الظروف الجوية المثالية يستغرقون ثلاث ساعات في قطع هذه المسافة القصيرة، ووقتًا أطول بكثير في حالة البحر العاصف، بل قد يظلون لأيام إن تعطل المحرك، لقد رأيت بعيني الوجوه التي تعلوها أمارات الخلاص، كما رأيت -أيضًا- الوجوه التي لا تزال علامات الذعر ترتسم على ملامحها، وسمعت بأذني أصوات

1- الحافة العليا من ظهر المركب. (المترجمة)

التهليل وصيحات العويل حين تصل القوارب المطاطية إلى الساحل الشمالي،
الآن لا يُثير عجبي أن يخطو اللاجئون بإرادتهم إلى بطن الحوت.

الغريزة الإنسانية

تقع مدينة آسوس العتيقة في تركيا قبالة الساحل الشمالي من ليسبوس، وهي اليوم قرية صيد جذابة، بها عدد قليل من الفنادق الأنيقة والمطاعم، وعلى الشريط الساحلي الرفيع المأهول بالكاد، والذي يدور حول آسوس، يستقل معظم اللاجئين الذين مرّوا من جوار شرفتي، القوارب المطاطية، وعلى بُعد بضع مئات من الأمتار من المسرح الروماني جلس شاب على حافة الشاطئ اتضح أنه سوري من الأكراد، اسمه محمد.

قال لي بلغة إنجليزية جيدة:"كان القارب مليئًا عن آخره"، أصبت بالذعر وتراجعت في اللحظة الأخيرة.

لقد درس محمد إدارة الأعمال في الحسكة في شمال شرق سوريا إلى أن استولت داعش على المدينة، ولقد رأى بعينيّ رأسه في العشرين من مارس على مقربة منه سيارة مفخخة تنفجر مودية بحياة 26 شخصًا، ورأى أشلاءهم تتناثر، وسمع صرخاتهم العالية التي شابهت صرخات النساء في الولادة، واخترقت أنفه رائحة اللحم المحترق النفاذة، ولا يزال يحلم بهذا الكابوس إلى الآن، لقد أقام لدى أقاربه في المدن المجاورة التي لم تحتلها

داعش بعد، ثم قدَّم طلبًا من أجل الدراسة في ألمانيا، لا يذكر محمد أنه من أوائل دفعته من باب التفاخر، وإنما ليوضح لماذا كان يأمل أن يصل إلى ألمانيا بطريق شرعي؛ لأنه ببساطة من النوع الذي يخاف، ولأنه حتى بعد مرور ستة أشهر لم يتلقَ أي رد رغم متابعته لطلبه، لم يتلقَ حتى تأكيد على وصول خطابه، تجاوز خوفه وسافر في الأسبوع الماضي إلى بيروت -يقول محمد" فالوصول بشكل مباشر من شمال سوريا إلى تركيا صار مستحيلًا، بينما تسمح تركيا للجهاديين بالمرور في الاتجاه المعاكس منها إلى سوريا"- ثم سافر من بيروت إلى إسطنبول، بعدها استقل الحافلة إلى إزمير، حيث التقى بالمهرب.

ويستطرد محمد:

- «لا أحد يريد السلام لسوريا، ستبقى داعش، وسيبقى الأسد، لا أحد في العالم بأسره ينتفض ليُغيّر ذلك».

مساء الأمس أوصلته سيارة تقريبا في الساعة الحادية عشرة إلى أرض بالغابة قريبة من آسوس يتجمع فيها سوريون آخرون، لم يتمكن أحد من النوم من الانفعال والبرودة؛ جلس اللاجئون مستندين على الأشجار دون أن ينطقوا حرفًا، ومع غبشة الفجر يراقبون السفن التابعة لخفر السواحل التركية، ويعدون القوراب التي تم اعتراضها -تقريبًا من كل قاربين يتم اعتراض واحد- يتذكر محمد، وحين فتحوا ثغرة أخيرًا بدأت الأمور في التسارع بشدة، قفزواكلهم إلى القارب، حتى هو وجد نفسه -أيضًا- واقفًا

في المياه، ثم خانته أعصابه.

قال محمد: "ليس بالأمر السيِّئ، سأحاول مرة أخرى".

ولحسن الحظ أنه لم يفقد مبلغ 1200 يورو، إذ عادة ما يودع اللاجئون المال لدى وكالة، ثم يخطرون المهرب بالكود، ليصرفها حين يعبرون، سيعمل محمد عملًا غير شرعي في مصنع منسوجات لعدة أشهر ليكسب مبلغ 800 دولار الإضافية التي تتكلفها الرحلة على قارب خشبي، وله أصدقاؤه في إزمير قادمون لجلبه من آسوس، إنهم بالفعل على الطريق.

"ليس الأمر سيئًا"، يؤكد محمد مرة أخرى، ويشير إلى الطريق الميداني الذي يفضي إلى الغابة: "اذهب بمحاذاة هذا الطريق إن كنت تريد أن تلتقي بمن أحوالهم سيئة حقًا، لكن حذار من المهربين".

في المكان الذي يتقاطع فيه الطريق الميداني بالشارع وجدت ثلاثة رجال يجلسون على صخرة، يبدو أنهم هم من عناهم محمد، إنهم في منتصف العشرينات أو نهايتها وليسوا قرويين مثل الغالبية، يبدو أنهم كانوا يحلمون بالغرب الحر في كابول أو قُندوز، لقد عملوا لأربعة أشهر في أعمال الإنشاءات في إسطنبول، من اثنتي عشرة إلى ست عشرة ساعة في اليوم لسبعة أيام في الأسبوع، من أجل توفير المال للمهربين، ثم سافروا بالسيارة إلى إزمير وابتاعوا مكانًا على القارب، أول أمس أوصلوهم أخيرًا إلى

آسوس، لكن لم يكن أي قارب في انتظارهم، وإنما أتراك رفعوا عليهم المسدسات ليجبروهم على الإفصاح عن الكود.

- «وهذا يعني أن المال...؟».

- "... تبخَّر!".

لم يتناولوا أي طعام منذ الأمس، ويعانون من ظمأ شديد، وحرفيًّا ليس بوسعهم لا التقدم إلى الأمام ولا العودة إلى الوراء، إنهم مضطرون أن يصلوا إلى إسطنبول أو إلى أي مدينة كبيرة أخرى بطريقة ما، وأن يجدوا عملًا بطريقة ما، لكن كيف يتسنَّى ذلك لأفغاني لا يملك ليرة واحدة في جيبه، دون أمتعة، ودون ملابس ثقيلة؟ لعل حالهم تكون أفضل على الأقل لو أن البوليس أمسك بهم.

يقول أحد الرجال بنبرة حاسمة: "لقد كانمن الخطأ مغادرة أفغانستان، صحيح أننا كنا نعاني ويلات الحرب هناك، لكن على الأقل كان ثمة سقف فوق رؤوسنا، ما كان ينبغي أن نحضر إلى هنا".

يؤكد آخر على كلامه: "نعم كانت تصوراتنا خاطئة تمامًا".

إنهم ينتوون، لو قدر لهم اكتساب المال، عدم الدفع به مقابل عبور بالقارب، وإنما العودة إلى أفغانستان، أو البحث عن فرصة في إيران، فهناك على الأقل ثمة من يتحدث لغتهم.

يقول الأفغاني الثالث معترضًا: "لكنهم يحتقروننا -أيضًا- في إيران".

سألتهم إلى أين يؤدي ذلك الممر.

- «هناك ستقابل أولئك الذين لم يتناولوا طعامًا منذ خمسة أيام».

نسير على الدرب فنجد خمسة أفغان بالكاد أتموا العشرين من العمر يقولون إنه ليس مسموحًا لهم أن يتفوهوا بكلمة، لكن أقصى ما يمكنهم إخبارنا به هو أن قاربهم لم يأتِ كذلك، لا بدَّ أنهم -أيضًا- أفصحوا عن الكود، وحين واصلت الأسئلة فروا، ثم مرت سيارة نقل (ستيشن) قديمة بيضاء طالعنا منها ثلاثة رجال بوجوه مندهشة، غير أنهم لم يمثلوا تهديدًا لنا، ولأن الممر بدا سالكًا عدنا أدراجنا، لكي نجلب السيارة، وفي أثناء الرحلة رأينا السيارة الستيشن البيضاء قُبالتنا مرة أخرى، بعد دقائق أخرى وجدنا الطريق مسدودًا بسيارة أخرى سائقها نائم وفمه مفتوح عن آخره، نخرج من السيارة ونقف مباشرة فوقبقعة بالغابة تعطينا فكرة عن جهنم رغم وقوعها في قلب الطبيعة التي تشبه الفردوس: مكدسة بالنفايات، عشرات أو مئات البشر يرقدون أسفل الأشجار، أو يجرون أقدامهم هنا وهناك، نلاحظ أن القوارب تنطلق من الغابة كل عدة دقائق رغم أن السفن الحربية تمخر أمام الساحل، لعله ذعر الدقائق الأخيرة، أو لعلها محاولة لإنهاك خفر السواحل بكَمٍّ متتابع وسريع من القوارب، فالقارب يتم

تطويقه بأربع من السفن الحربية، أما سائر القوارب فيبدو أنها تمكنت من العبور إلى ليسبوس.

وفي إحدى الشجيرات نكتشف وجود الأفغان الخمسة من جديد الذين فروا من وجوهنا قبل ساعة، معهم ثلاث زجاجات مياه شربوها كلها تقريبًا وعلى الأرض علبتين من الأغذية المحفوظة، من الواضح أن (الستيشن) جلبتلهم بعض المؤن، إنها وجبتهم الأولى منذ أيام، كما يؤكد الأفغان: فاصوليا بيضاء في صلصة طماطم ارتشفوها باردة، على أي حال لم أرَ أي ملاعق، لكنهم لا يجيبون عن السؤال حول هوية الرجال في السيارة (الستيشن)، بل يريدون معاودة الاختفاء بسرعة، يهبطون طريقًا منحدرة يبدو أنها تقود إلى تلك البقعة بالغابة، لا، ليس من المفروض أن نرافقهم، فالحراس يحملون سكاكين ومسدسات، واحد من الأفغان يريد جرعة ماء سريعة، لكنه يقوم بحركة لاإرادية، تنم عن غريزة لم تفسد بعد، حركة مجنونة، تكاد تطابق في جنونها جنون الأنظمة الحدودية الأوربية: هذا الذي عليه أن يكتفي بهذا القدر الشحيح من الماء لأيام الله وحده يعلم عددها يعرض عليّ أن أشرب من الزجاجة أولًا!.

عددُ اللاجئين هنا صفرٌ

تتهادى سيارتنا المؤجرة بصعوبة بالغة وهي ترجع إلى الخلف على الطريق الضيق غير الممهد إلى أن نجد أخيرًا موضعًا نلف منه، وعندما وصلنا إلى الشارع لم نواصل السير يمينًا هابطين الجبل نحو آسوس، وإنما انحنينا يسارًا، ثم مرة أخرى إلى اليسار، ثم عند التفرع الأول يسارًا مرة أخرى، إلى أن دُرنا حول الجبل دورة كاملة ووصلنا إلى البحر، رأيت على الشاطئ الطويل -الذي عادة ما يكون خاليًا من البشر- حبيبين متعانقين، كما وقفت هناك فرقة بوليسية بلا تشكيل محدد، لعلهم خمسة وعشرون أو ثلاثون موظفًا في بزات زرقاء بالغة الهندام والأناقة، في انتظار الفرقة التالية، أتوجه مخاطبًا الضابط الذي رد تحيتي ببود، فأقدم نفسي بأنني مراسل صحفي من ألمانيا، يوضح بلغة إنجليزية طلِقة أن فرقته تراقب الساحل في تلك البقعة.

سألته:

- «بسبب اللاجئين؟».

أجاب الضابط:

- «نعم بسبب اللاجئين».

- "هل يتمكن بعضهم من العبور؟".

- "لا، لا يعبر أي أحد".

- "لكنني رأيت أن البعض يتمكن من العبور".

- "لابد أنك أخطأت، فكما ترى كل هذه السفن تابعة لخفر السواحل".

وحين أردتُ أن أطلعه على ما رأيته من الجبل بالأعلى، تحدَّث معي الضابط بإنجليزية تكسرت فجأة، وقال إنه لا يفهمني جيدًا، فللأسف هو لا يتحدث سوى التركية، ثم إن عليه أن يعود إلى رفاقه.

"لا لاجئون هنا"، ينفي بشكل قاطع ويتركني واقفًا: "أرجو... معذرة".

أتبعه وأشير إلى الجبل المغطى بالأشجار الذي يرتفع اثنين من الكيلومترات شرقًا في البحر، فهناك يقيم اللاجئون منذ أيام أو ربما أسابيع بلا رعاية، ويتعرضون لإرهاب المهربين، يهزُّ الضابط رأسه ويكرر أنه للأسف لا يجيد الإنجليزية بالقدر الكافي ليتمكن من فهمي.

"هناك!"، أصيح وأشير بأصبعي الممدودة نحو الجبل وأقول بإنجليزية بسيطة: "لاجئون كثيرون هناك!".

يؤكد الشرطي:"لا لاجئون هنا"، ويرفع كفيه ويحركهما من المنتصف إلى الخارج مثل مساحات السيارة قائلًا: "عدد اللاجئين هنا صفر".

مسألةُ حياةٍ أو موتٍ

ثمة مقهى قبالة "باصمانه غاري"، اسم محطة القطار الرئيسة في إزمير، يتم التفاوض فيه على الحياة والموت، ففي النهاية يتعلق محض البقاء على قيد الحياة بصدق المُهّربالذي يودع اللاجئون فيه ثقتهم، للدقة فإنه مجرد وكيل يحاول استقدام اللاجئين؛ مجرد إنسان يتحدث لغتهم، وهذا ما يزيد من صعوبة اختيار البديل الأنسب على اللاجئين؛ لأن الوكيل ذاته غالبًا قد لا يعرف رئيس العمليات بشكل شخصي، إنها الثامنة صباحًا، وقد بدأت المفاوضات الأولى بالفعل، على بعد طاولتين فقط تجلس عائلة سورية حول رجل فيمنتصف العمر، ينقر باستمرار على هاتفه الذكي، ثم يرفع الشاشة أمام زبائنه، لعله يريهم مبالغ تختص بمسار أو آخر كما أخمن، أو بقارب من هذا النوع أو ذاك، تحمل الأسرة أمتعتها معها بالفعل، كل فرد منهم يحمل حقيبة يد رياضية، سهلة الاستخدام، ممتلئة عن آخرها، تضم الأسرة رجلين وامرأة في الثلاثين تقريبًا، علاوة على صبي في الخامسة ربما، يبرز من حقيبته دمية من القماش على شكل كنجر، ربما يمثل الرجلان اللذان قد يكونا أخوين أو صهرين، دور الشرطي الطيب والشرطي الشرير، أو لعلهما مختلفان في الرأي حقًا حول

المضي في هذه المسألة أم لا، فبينما يطرح أحدهما الأسئلة، يهز الآخر رأسه بريبة، ويشيح بوجهه، يبذل الوكيل جهده كي يذلل العقبات ويزيل التوتر من الحديث، يبتسم كثيرًا ويغازل السيدة، تنُم ملابسه الشبابية كذلك عن البساطة، حذاء رياضي، بلوفر ذو قلنسوة، وسترة مطر سوداء تعلوها ثلاث شرائط بالأخضر الفوسفوري، توافق السيدة التي من الواضح أن المسألة بالنسبة إليها أكثر إلحاحًا وتجيب بحدة على نبرته المرحة الواثقة، ربما تفكر في ابنها الذي تريد أن تنزع عنه الخوف، لا أعرف النتيجة التي انتهت إليها هذه الجولة حين نهض الوكيل ودفع حساب الشاي وغادر المقهى مع الأسرة، يحمل اللاجئون أمتعتهم معهم في كل مكان.

حذاء السيدة ميركل

أيضًا في "باصمانه غاري" التي لا تزال تعكس طرازًا شرقيًا من عصر الحداثة المبكرة بين الشوارع متعددة الحارات ومجموعات البنايات التي بلا ملامح مميزة، يوجد مسجد عثماني، أخمن أني سأقابل فيه لاجئين، فبيوت الله تقدم في الإسلام -أيضًا- الملجأ للغريب منذ قديم الأزل، غير أني أجد بواباته مغلقة، أدور حول السياج فأصطدم في شارع جانبي بمدخل جانبي يقود عبر ساحة صغيرة إلى مكان الوضوء، هناك يقطن اللاجئون: تحت السماء المفتوحة بدلًا من دفء المسجد، على الحجر المكشوف بدلًا من السجاجيد الوثيرة، إنهم قرابة اثنتي عشرة عائلة ومعهم أطفال وشيوخ نفد منهم المال، أزاحوا أمتعتهم واللفافات البلاستيكية التي يفترشونها جانبًا، يتحلقون سويًّا على الأرض في مجموعات صغيرة أو يجلسون على كراسي مقهى تابع للمسجد، لا أسهل من بدء حوارات معهم، إذ هم يملكون الكثير من الوقت، ويحملون الكثير من الحكايات.

لقد كانت عائلة منهم شاهدة عيان على المذابح التي ارتكبها النظام السوري عام 2011 و2012 في درعا في أقصى جنوب

سوريا، أما الأخرى فقد عانت من النزاع المسلح على دير الزور، المدينة الواقعة على نهر الفرات، بين داعش والقوات السورية، لقد فقدوا جميعًا أي أمل في السلام، يتحلق أطفالهم حولهم، أولئك الصغارالذين يعتبرونني مجرد وسيلة لتمضية الوقت، أفترش بطانية مطوية مصنوعة من الصوف البِكر الثقيل، وأفقد تدريجيًّا النظرة الشاملة؛ أي حكاية تخص مَن، فالحكايات لا تتناول فقط الوطن السوري أو العراقي وإنما هي -أيضًا- حكايات القهر، والحرب، والهروب، وكيف نفد المال أو ضاع أو سُرق، إلى أين نذهب؟ يسألون جميعًا، ويخشون أن يضطروا إلى العودة في النهاية ليختاروا ما بين موتين، موت على يد النظام، أو آخر على يد داعش.

علق رب أسرة ساخرًا "علينا أن نتعلم كيف سار يسوع على الماء"، كان يعمل مدرس لغة إنجليزية في دمشق، ولهذا فقد تولى مسؤولية الدروس في باحة المسجد.

سألت: "ألا توجد دولة عربية تستطيعون الذهاب إليها؟".

قال ربُّ أسرة آخر: "لقد جئنا من الأردن"، أخبرني أن اللاجئين لا يحصلون هناك على تصاريح عمل، فلقد زادت أعدادهم جدًّا، 1.4 مليون بحسب الإحصاءات الرسمية، وهذا يمثل 20 بالمئة من الشعب الأردني، كما أن مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة اضطرت في هذا العام -أيضًا- إلى تخفيض المساعدات القليلة أصلًا؛ لأن الدول المانحة من المجتمع الدولي لم تسدد الأموال

التي تم الاتفاق عليها.

واصل الأب حديثه: "هل يتعين علينا أن نعيش كمتسولين، هل يتعين على أطفالي أن يترعرعوا في خيمة؟".

- «ودول الخليج؟».

ضحك وكأنني ألقيت نكتة:

- «دول الخليج!، الفيزا وحدها لدخول الإمارات تكلف 6000 دولار».

أضافت سيدة، ترتدي حجاب الرأس مثلها مثل كل السيدات داخل باحة المسجد:

- «تحترم ألمانيا حقوق الإنسان، هذا أهم شيء».

صاح زوجها:

- «إن حذاء السيدة ميركل لهو أعلى قيمة من رؤوس كل الحكام العرب».
- "الحذاء؟".

يقول الرجل ويفتر ثغره عن ابتسامة:

- «نعم، الحذاء».
- "سأنتبه إلى الحذاء في المرة القادمة التي أرى فيها السيدة ميركل في التلفزيون".

- "نعم، افعل ذلك، انتبه للحذاء"، وفكر في كلماتي: "كل فردة حذاء لوحدها لهي أقيم من كل الحكام العرب مجتمعين".

أثني مدرس اللغة الإنجليزية على كلامه:

- «وفردتا الحذاء أقيم من العالم العربي!».

يعد الضحك واحدة من الوسائل التي تجعلهم يشعرون بإنسانيتهم وهم على شفا الهاوية التي تفتح ذراعيها من بين أيديهم ومن خلفهم، يطلقون شخرة ثم بدلًا من الحذاء يصير كعب الحذاء، ثم بدلًا من كعب الحذاء يصير الوسخ الذي أسفل كعب حذاء المستشارة الألمانية أعلى قيمة من العالم العربي برمته، ليس الضحك فقط وسيلة لإثبات الذات، أيضًا الحصص الدراسية التي يعطونها لأطفالهم، الباحة الداخلية المكنوسة بالمقشة، الملابس المعتنى بها على نحو لافت للنظر، ثم الإشارة المتكررة للوظيفة التي كانوا يمارسونها، وللمؤهلات التي يستطيعون إثباتها، ربما لأنهم يشعرون أن العالم قد تخلّى عنهم، ولأن هذا صحيح فعليًا، فلقد تشكلت إرادتهم، مثلما تتشكل إرادة اللاجئين منذ الأزل، علىعدمالتخليعن أنفسهم، هذا في الوقت الذي تأكل فيه نار الحياة اليومية أرواحهم، إذ يتعين عليهم دفع ليرةمقابل كل مرة يدخلون فيها إلى الحمام، أي ما يعادل ثلاثين سنت، فلا تتوافر في "باصمانه غاري" دورات مياه متنقلة زرقاء.

أخبرني عجوز نحيل متشكيًا:

- «وبعد صلاة العشاء يغلق مكان الوضوء، مهما توسلنا إليهم، لا يسمح الحراس لنا أبدًا بالدخول، ولا حتى للنساء أو الأطفال المرضى».

يقول العجوز إنه بمفرده هنا، وحيد تمامًا، وقد كان عمدة قرية متناهية الصغر في سوريا، انفصل عن أهله في مكان قريب من الحدود التركية، لا يعرف أين تحديدًا، حين داهمهم البوليس وسط أعداد ضخمة من اللاجئين ووزعهم على حافلات مختلفة، لم يكن معه سوى مبلغ صغير من المال ولم يكن يملك هاتفًا، ليتمكن من العثور على أهله مرة أخرى، ولقد شق طريقه راكبًا الحافلة أحيانًا، أو مترجلًا، أو مستقلًّا سيارات متفرقة حتى وصل إلى إزمير وهو يحدوه الأمل أن يلتقي بهم في مكان قريب من "باصمانه غاري"، وعلى نحو ما يشعر أن المسؤولية تجري في عروقه، وأصبح عمليًا هو المتحدث باسم العائلات التي تعيش أمام مكان الوضوء في مسجد "باصمانه غاري"، ثم ها هو لم يتحمل ذلك قبل عدة ليال وصرخ مناديًا أولًا الحراس، ثم إمام المسجد، ثم الله، من أجل أن يسمحوا للسيدات والأطفال بالدخول إلى الحمام، فالرجال يستطيعون الاختباء في أي مكان، لكن سيدة، ربما تعاني من الدورة الشهرية، أو طفل يعاني من الإسهال إلى أين يتوجهون في وسط المدينة إن كانت حتى المقاهي تغلق أبوابها دونهم؟

استفسرت:

- «ألا يساعدكم أحد؟، أي منظمة؟ الدولة التركية، الأمم المتحدة، أي أحد؟».

قال العجوز:

- «يمر علينا فريق طبي مرة في الأسبوع ويوزع أدوية، هذا كل شيء».
- "وكيف تعيشون؟".
- "نعيش على إحسان الجيران"، ويحكي عن أن سكان وتجار الحي يُزوِّدون اللاجئين بالملابس والأغطية، ويوميًّا بالغذاء، "ويقدمون بضع ليرات لأكثرنا عوزًا، إذ نحن مضطرون أن ندفع للمسجد ليس فقط مقابل التواليت والحمام، وإنما مقابل كل مقبس كهربي يشحن فيه اللاجئ هاتفه، وكل كوب شاي".
- "أنا رجل متدين، لا أفوّت فريضة من صلاتي، لكنَّ إسلامًا لا يعرف الرحمة لهو إسلام لا يساوي".

من الممكن أن يعيش
الإنسانُ بلا حريَّة

لقد استقبلت تركيا أكثر من 2 مليون لاجئ، وبهذا صارت اللغة العربية هي اللغة الثانية في الحارات الضيقة في حي "باصمانه غاري"، يحمل كثير من الناس حقائب رياضية سهلة الاستخدام، أو حقائب ظهر مملوءة عن آخرها، يسيرون بإيقاع أبطأ من السرعة المعتادة لسائر قاطني المدن، ويتوقفون أمام المقاهي وقتًا بلا نهاية من أجل كوب شاي واحد، أو يجلسون داخلها بالساعات حتى بعد أن يكون الكوب قد أفرغ عن آخره، لكن من الواضح أن لا أحد يطردهم عن الكراسي التي يجلسون عليها، ولأن كثيرًا من السوريين يعيشون في إزمير الآن فقد صارت المقاهي تقدم الشيشة التي لم تكن معتادة في تركيا قبل ذلك، تكلف الغرفة المفردة في البانسيونات الرخيصة المنتشرة في كل ناصية من المدينة حوالي عشرة يورو، أما الغرف متعددة الأسرّة والعنابر فتكلف أقل بكثير، من الممكن -أيضًا- تأجيرها بالساعة لمن يرغب في مجرد العودة للاستلقاء على مرتبة لبعض الوقت، أما الذين يمتلكون مالًا أكثر، أو يرغبون في البقاء مدة

أطول، فيستأجرون شقة مفروشة يتخيرونها من الملصقات الكثيرة المعلقة التي تعلن عن الشقق في كل مكان، تنتعش مطاعم الوجبات السريعة، إذ إن أقل القليل من اللاجئين هم من بوسعهم تحمل تكاليف الأكل في المطاعم، تنتعش -أيضًا- مقاهي الإنترنت، ومكاتب الصرافة، ومكاتب تحويل الأموال، محال الكوافير والحلاقة، والحمامات العامة، أما البضاعة الأكثر مبيعًا فهي سترات النجاة المعروضة في محلات الملابس بألوانها الحمراء والبرتقالية الفاقعة.

في أحد المحال التي تعرض -ما بين القمصان والبنطلونات الجينز- التجهيزات اللازمة لرحلة في أعالي البحار، أزعم أني قادم من إيران، على الأرجح أن البائع الشاب، الذي هو -أيضًا- سوري، لم يلتقِ بألمانيّ يتحدث العربية قط، وإلا لكان تعرف على لكنتي، على أي حال لست مضطرًا لتلفيق قصة كبيرة لكي يصدقني، فأخبره أنني كاتب، وأننا بصفة خاصة نعاني في إيران من الأوضاع الخانقة، ثم إن كل هذا ليس مكذوبًا أصلًا.

يستفهم البائع:

- «هل أنت بمفردك إذن؟».

- "نعم، سوف أحضر عائلتي عندما أصل إلى هناك".

يومئ البائع، الذي لست مضطرًا أن أوضح له المقصود بكلمة "هناك".

- «إن شاء الله».

ثم سألني -لم نتبادل أكثر من عشر جمل منذ دخولي المحل- إن كنت أرغب في أن يوصلني بمُهرّب يمكن الوثوق به، مكالمة هاتفية فقط ويحضر في خلال ثلث ساعة.

ومع الشاي الذي جلبه لي البائع أسأل عن أسعار سترات النجاة المختلفة، وأنواع القوارب، والجزر اليونانية، يعطي البائع انطباعًا بأنه كفء، لا أستطيع أن أصفه بغير ذلك، إلا أنه يسمي القوارب المبنية من الألواح الخشبية التي يكلف ركوبها ثمانمائة يورو زيادة "يخوتًا" بمنتهى الإصرار، ويبدو لي الأمر مثيرًا للسخرية المُرّة، بخلاف ذلك فإنه لا يقلل من مدة الرحلة ولا من الأخطار التي تحفها، كما يذكر كذلك المسيرة الطويلة المطلوب قطعها سيرًا على الأقدام والتي سيتوجب عليَّ أن أستعد لقطعها في ليسبوس، ولهذا فهو يحثني على اتخاذ طريق من مدينة بودروم التركية إلى جزيرة كوس اليونانية، كثيرًا ما سمعت من اللاجئين - خصوصًا الأفغان- شكاوي من المهربين الذين يعدونهم بنجوم السماء، يقولون إن الرحلة تستغرق ساعة واحدة قد يستغرقها شرب القهوة، وأنهم سيجدون مركز استقبال اللاجئين التابع للاتحاد الأوربي مباشرة بمجرد رسوهم في المرفأ اليوناني، ورغم أنه بالتأكيد سيحصل على نسبة من ربح العملية، بل لعله قد تم تشغيله في الدكان أساسًا لأنه سوري، أي من أجل أن يوصل أهل بلاده بالمهربين، لكن رغم كل ذلك فهذا البائع لا يُجمّل رحلة

الهروب، بدلًا من ذلك يسأل لماذا أرغب في الهروب من إيران بالأساس رغم عدم وجود حرب هناك.

أجبت:

- «هذا صحيح، لكن لا توجد حرية».

قال البائع الذي خسر بلاده في الثورة:

- «صدقني، يستطيع الإنسان أن يعيش بلا حرية، لكنه لا يستطيع أن يعيش بلا سلام».

أسأله عن رأيه في ما يخشاه كثير من الأوربيون وهو أن يكون ثمة جهاديون من بين اللاجئين، قال البائع:"هذا أمر مُثار ما بين السوريين أنفسهم، كل واحد هنا لديه خبرة سيئة مع داعش وخوف من جواسيسها"، في الواقع إنه يرى أن ذلك مسلك غير صحيح لأن داعش تمتلك المال الكافي لتوصيل الإرهابيين بطريقة أسرع وأأمن وأكثر راحة إلى أوربا بدلًا من حشرهم في زورق مطاطي، لكن من ناحية أخرى فقد رأى بنفسه جهاديين.

سألته:

- «رأيتهم؟».

- "نعم، على الفيسبوك"، يجيب البائع ويحضر هاتفه الذكي ليريني صورتين لرجل ملتحٍ، واحدة التقطت له في سوريا أو العراق والأخرى في الحديقة الأمامية لمنزل في أحد أحياء

غرب أوربا، الرجل في الصورة الأولى يرتدي الجلابية ويحمل رأسين مقطوعين عاليًا؛ الرجل في الصورة الثانية يرتدي ملابس غربية عادية ويحمل طفلين مبتهجين بين يديه.

- "هل أنت متأكد أن هذا هو نفس الشخص؟".
- "هذا على أي حال هو المكتوب أسفل المنشور، ثم انظر: يبتسم الاثنان نفس الابتسامة".

صحيح أن كلا الرجلين يبتسمان إلا أن الوجوه صغيرة جدًّا على شاشة الهاتف الذكي، واللحى كثيفة للغاية من أجل أن نقول ونحن واثقون تمامًا أنها نفس الابتسامة، كما أنه من السهل تركيب هذه الصور على الفيسبوك لتنتشر بعدها بسرعة كما النار في الهشيم، إن ما يثير قلق الأوربيين هو نفسه أخشى ما يخشاه اللاجئون.

هل من عودةٍ؟

أصِل إلى الميدان أمام الجامع، حيث تُلقي الأشجار بظلال لطيفة، وحيث لا تزال البيوت حول الميدان تحتفظ بالقضبان المشغولة أمام خشب شيش النوافذ، ثمة أغطية مبسوطة على الأرض يبيع عليها بائعون موسميون ملابس مستعملة، حقائب صغيرة مقاومة للماء من أجل الهواتف الذكية، أو أدوات للنظافة الشخصية، وعلى سياج الجامع علقت أكثر من عائلة أقمشة بشكل عرضي من أجل أن يبدلوا ثيابهم ورائها أو ينالوا قسطًا من الراحة، أيضًا ثمة كراسي، ليس فقط أمام المقاهي، لكنها موزعة في الميدان كله، بغض النظر عمن وضعها، فإن السكان المحليين واللاجئين سعداء بها، فعليها يجلسون صامتين، أو يثرثرون في مجموعات صغيرة دون أن يضطروا إلى دفع ليرة واحدة من أجل الشاي، يعطي المشهد انطباعًا بالسكينة وهو الأمر الذي فاجئني تمامًا رغم المحنة، ورغم العبء النفسي الذي يعاني منه اللاجئون، لكني لم أرَ أي اعتداءات عنيفة ولا سمعت كلمات صاخبة على طول مسار اللجوء، المشاجرة الوحيدة التي رأيتها حدثت في ليسبوس بين واحد من متطوعي الإغاثة وأحد المصورين، ربما يرجع السبب -أيضًا- إلى وضعهم غير الآمن، واعتمادهم على

المساعدة والقبول، هو ما يجعل اللاجئين يبذلون الجهد في العناية بمظهرهم، ويراعون إظهار المودة والعرفان بالجميل، وتجنب كل ما من شأنه أن يصمهم بوصفهم عبئًا إضافيًّا، من ناحية أخرى ربما أكون قد تأثرت بما قرأت قبل الحضور، فالأدب الألماني كثيرًا ما وصف نفسية اللاجئين، يوزيف روت، مثله مثل بيرتلوت بريشت وهيرتا موللر، ورغم اختلاف أسباب الهروب فإن تأثيره على الوجدان يظل هو نفسه، الآمال والمخاوف، الشعور بالعار والرغبة المضنية في نيل الإعجاب، أيضًا الاكتئاب أو الغضب الهادر حين لا يجد الإنسان مستقبلًا حتى في الوجهة التي وصل إليها، ولعل الأسباب لا تختلف كثيرًا على الإطلاق.

أجلس على كرسي شاغر، وأتساءل ما هي قصة هذا الرجل الممتلئ الجالس إلى جواري الذي يبدو الإهمال جليًّا على مظهره؛ ذقنه غير حليق، شعره طويل بلا عناية على جانبي رأسه الأصلع، يرتدي بدلة بُنية متهالكة ذات ثقوب في غير موضع فوق قميص مبقع.

سألته:

- «من أين؟».

يجيب الرجل ناظرًا إليَّ من عينين داكنتين، حزينتين على نحو مُبهم، تبدوان على رأسه المستدير مثل زِرّين مخيطين.

- «من الموصل».

ليس عليَّ أن أواصل طرح الأسئلة كي أعرف بقية الحكاية، اسمه محمد يوسف زيدان، عمره 56 سنة، وكان يمتلك في الموصل سلسلة محلات، لكن في الموصل صار التدخين ممنوعًا، وصار الخروج مع زوجتك ممنوعًا، وصار العمل ممنوعًا، وإذا عملت ستضطر إلى دفع مكتسباتك من أجل تمويل داعش.

سألته:

- «ألا يوجد أي شخص في الموصل على الإطلاق راضٍ عن داعش؟».
- يقول السيد زيدان:
- "إنهم حيوانات، أي إنسان يسعد حين تحكمه حيوانات؟".
- "رغم ذلك لا بدَّ أن لداعش مؤيدين".
- "ليست لديك فكرة البَتَّة عما يدور في الموصل، صار الإرهاب غذاءً يوميًّا، تمارسه مجموعة بينما يعاني كل الآخرين من ويلاته، لِمَ تعتقد إذن أني حضرت إلى هنا؟ لقد كان لديَّ كل شيء هناك، عائلة، بيت، سيارتان، كنت شخصًا ذا وجاهة، الآن صرت نكرة".

لقد قام محمد يوسف زيدان بخياطة جزء كبير من ثروته، حوالي 45 ألف يورو، في بطانة سترته، وهرب من الموصل قبل

18 يوم، وقد خلّف أسرته وراءه لأن الطريق بدت له في غاية الخطورة، خصوصًا عند نقاط التفتيش التابعة لداعش، ولقد نجح في الوصول سالمًا إلى تركيا بكثير من الحظ وقليل من المنطق، رغم إنهاكه من المسيرات الطويلة سيرًا على الأقدام، ثم هاجمه عدة رجال عشية اليوم الأول لوصوله، وأوسعوه ضربًا حتى فقد الوعي، يقلب السيد زيدان سترته إلى الخارج ويريني الموضع الذي مزقت فيه، حتى حقيبته استولى عليها اللصوص، وكذلك هاتفه الذكي، وبطاقة الهوية، إلى آخره.

- «والآن؟».

- أجاب:

- "طريق العودة أشد خطرًا".

لا يزالُ التوقيت مناسبًا

حين وصل القطار مساء يوم 6 ديسمبر 2015 إلى كولونيا، ظل اللاجئون جالسين مُحدقين بريبة في رصيف المحطة، لا بدَّ أن يدخل المساعدون في ستراتهم الزرقاء والمترجمون في ستراتهم الخضراء أولًا إلى الممرات ويصيحون في المقصورات ليبدأ اللاجئون في جمع حاجياتهم والنزول من القطار، لقد وصل فقط مائتا لاجئ من الأربعمائة والستين الذين تم الإبلاغ عن قدومهم صباح اليوم، واليوم -أيضًا- يصل قطار واحد فقط بدلًا من القطارَيْن المُعتاديْن، إن الأماكن الشاغرة الكثيرة لهي شاهدة على المعوقات التي استجدتمؤخرًا على مسار اللجوء إلى أوربا، البحر الذي صار هائجًا بطبيعة الحال، لكن -أيضًا- إحكام قبضة الرقابة على السواحل التي من أجلها منح الاتحاد الأوربي تركيا أموالًا طائلة وتَزَلَّفَ لحكومة أردوغان، علاوة على ذلك فإن دول البلقان لا تسمح بمرور إلا اللاجئين العراقيين والسوريين والأفغان، وبهذا يعلق باقي اللاجئين على الحدود أو يضطرون إلى دفع أموال أكثر للمهربين.

لكن الذين يجلسون في القطار قد نجحوا في الوصول في

الوقت المناسب قبل هجوم الشتاء وقبل الإغلاق الكامل للحدود، اليوم صباحًا ركبوا القطار من باساو على الحدود الألمانية- النمساوية، ومن الواضح أنهم لا يعرفون أين هم الآن، لكنهم يسألون عن ذلك بمجرد أن ينزلوا من القطار، ويستوضحون أين تقع كولونيا، لكن أكثر ما يهمهم أنها في ألمانيا، من الغريب أن الذي ينزل إلى المحطة الكائنة في المطار تقريبًا عائلات فقط، كثير من الأطفال، كثير من السيدات، كثير من كبار السن، يبدو أنه يتم توقيف الشبان المسافرين بمفردهم على الحدود، أم هل يشقون طرقهم الخاصة اعتمادًا على أنفسهم بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض ألمانيا؟ سيسعد موظفو مدينة كولونيا الذين يميزون أنفسهم بسترات حمراء بهذه الحقيقة، يحاول أحد الموظفين أن يصيغ عباراته بصورة مهذبة فيقول: "التواصل مع باساو قابل للتحسين، إذ حتى أعداد اللاجئين يتم إخطارهم بها قبل وصولهم بقليل".

ولهذا يحدث أن اليوم مثلًا عدد المساعدين الذين ينتظرون اللاجئين على رصيف المحطة أو في الخيام المنصوبة في الصالات الرياضية أكثر من اللازم، فالعين المجردة تقدر أعدادهم بنسبة 1:1، يفرك اللاجئون عيونهم دهشة من عدد الأيادي التي تقدم المساعدة، فتحمل عنهم الأمتعة والأطفال، وتهتف بتحيات الترحيب، وفي كل مكان تقابلهم وجوه ودودة، أيضًا المتطوعون

في خزانات الملابس[1] الذين يرتدون سترات رمادية يدوّنون للتو على رصيف المحطة من يحتاج إلى جاكت أو بلوفر أو بنطلون أو حذاء، ويسجلون المقاسات في قوائمهم، أيضًا المسعفون، والجنود الأقوياء من ثكنة بورتس القريبة، وليس أقل من 5 أطباء يمدون يد العون، كلهم خارج ساعات عملهم المعتادة، وكم من ألمان يجيدون لغات اللاجئين! إذ ليس فقط بين المترجمين، لكن-أيضًا- بين سائر المتطوعين، وبين العاملين في إدارة المدينة العديد والعديد من أبناء مهاجرين عرب وأكراد وإيرانيين وأفغان، ربما يتم تفضيلهم بسبب معرفتهم باللغة وتوزيع هذه المهام عليهم، في الأخير يتقدم قرب نهاية العام في ألمانيا عدد أكثر من كافٍ من المواطنين كمتطوعين، من يتصل مثلًا بإدارة مدينة كولونيا كي يساعد في "التحويلة" يسجل اسمه في قائمة انتظار طويلة حتى لو كان يعرف الفارسية أو العربية، ويواسونه بأن كل واحد سيأتي عليه الدور، لكن ليس قبل ثلاثة أو أربعة أسابيع.

إن "التحويلة" هو اسم المعسكر في الأرض الفضاء، ما بين محطة المطار والجراج رقم 2، وذلك لأن اللاجئين يتم توزيعهم من هنا بعد انتظار ساعتين إلى ثلاثة على معسكرات الاستقبال في مقاطعة نوردراين- فيستفالن، الخيام بها تدفئة، ومفروشة بألواح خشبية، بل ومزدانه في إطار الممكن: لوحات رسمها

1- أقسام تابعة لمنظمات المعونة، مثل الصليب الأحمر أو كاريتاس أو أوكسفام، تقبل التبرع بالملابس المستعملة ليعاد توزيعها على المحتاجين. (المترجمة)

أطفال كولونيا، شاشات تعرض أهم المعلومات، وملصق كبير يرحب باللاجئين، تسير الإجراءات وفق نظام وضعته السلطات والمساعدون المتطوعون، وهو نظام يدعو للفخر، إذ حتى قبل أن يصل اللاجئون ثمة فاكهة وشوكولاته ومياه على الطاولات، وبمجرد أن يجلسوا يتم تزويدهم بالشوربة والشاي، الإنترنت مجاني، من أجل أن يطمئنوا ذويهم في التو، ثمة عدد كاف من المقابس لشحن الهواتف المحمولة والذكية، ولا يستغرق الأطفال وقتًا طويلًا قبل أن يصادقوا المساعدين الذين تم توزيعهم على ركن الألعاب، ثمة شباك لتحويل العملة، وغرفة لغيار الرضع، وزاوية للصلاة، علاوة على ماكينات آلية للتذاكر لأولئك الذين يرغبون في تنظيم باقي خط السير بأنفسهم، المساعدون الذين يقفون إلى جوار الماكينات متصلون هاتفيًا بغيرهم من المساعدين الذين يجلسون في بيوتهم أمام شاشات الكمبيوتر ويخبرونهم عن أرخص الرحلات، أيضًا يرافقونهم حتى المحطة الرئيسة حيث تنطلق القطارات إلى باقي الجمهورية الاتحادية أو تواصل إلى الدول الاسكندنافية.

يستغرق الأمر بعض الوقت إلى أن يهدأ اللاجئون، إلى أن يصلوا، لكن بعد قليل يذوب التوتر ويصبح الجو في الخيمة مبهجًا، اليوم تحديدًا حيث كثير من المساعدين لا يجدون ما يفعلونه بدأت على الطاولات أحاديث مطولة لا تخلو من العاطفة، أو إن لم تبدأ أحاديث فعلى الأقل نظرات دافئة، وإيماءات قلبية، خصوصًا أن اللاجئين لا يتوقفون عن التعبير عن امتنانهم، في الوقت ذاته فإن

في المشهد شيئًا غير واقعي، ليس فقط بالنسبة للاجئين الذين يعاينون لأول مرة في رحلتهم المضنية هذا الاستقبال المفعم الودود ولعلهم يتساءلون ربما إن كانت هذه الألمانيا ستظل على هذا الإخاء غدًا صباحًا، بالمناسبة فإن هذا السؤال يطرحه -أيضًا- المساعدون على أنفسهم.

فاليوم بالذات، 6 ديسمبر، حققت الجبهة الوطنية في الانتخابات المحلية في فرنسا انتصارًا مظفرًا، وفي دولة الجوار الكبيرة الأخرى، بولندا، أيدت الحكومة الجديدة أوربا فيكتور أوربان التي لا مكان للاجئين فيها، لقد عارضت كثير من الدول الأوربية الشرقية بل وحتى رئيس المجلس الأوربي سياسة ألمانيا للاجئين معارضة عنيفة، بل حتى في ألمانيا نفسها يصعد نجم اليمينيون الشعبويون لدرجة أن أنجيلا ميركل صارت تتعرض لضغوط قوية حتى من داخل حزبها، ولقد استقبل رئيس وزراء بايرن فيكتور أوربان بود بالغ نهاية سبتمبر، لكنه تخلى عن كل السلوكيات المهذبة في يوم الحزب حين كانت المستشارة الألمانية في ضيافته، تتصاعد بشكل رهيب أعداد الاعتداءات على معسكرات إيواء اللاجئين، فحسب بيانات مكتب الشرطة الاتحادية بلغ عددها 817 اعتداءً في العام الجاري، وفي الوقت نفسه تبذل الحكومة الاتحادية قصارى جهدها في تخفيض أعداد اللاجئين وقامت بتصعيب معايير الحق في اللجوء وفرضت قيودًا على الحق في جلب العائلة الذي صار من النادر أن يُمنح، كما ترغب في تشييد مناطق ترانزيت وتنادي في لقاء القمة بحماية

الحدود الأوربية، لكن سياسة لاجئين موحدة مثل تلك التي تحاول المفوضية الأوربية تنفيذها قد باتت أملًا بعيدًا بعد النجاحات الانتخابية التي حققتها فعلًا الأحزاب ذات التوجه القومي أو تلك التي يتوقع تحقيقها في الأمد القريب، حتى السويد الليبرالية التي تعتبر أكثر دولة أوربية استقبلت لاجئين قياسًا إلى عدد السكان، فقد عادت وأدخلت نظامًا رقابيًّا على الحدود، أما في ألمانيا فيرى حتى السياسيون المحليون المنتمون إلى حزب الخضر أن أقصى درجات التحمل قد تم بلوغها فعلًا، ثم جاءت هجمات 13 نوفمبر في باريس التي راح ضحيتها 130 إنسان لتشعل من جديد الخوف من الإسلام، وبما أن اثنين من المعتدين دخلوا البلاد باعتبارهم لاجئين فقد أكدذلك أكثر التخوفات ضرواة، لكن الحرب الجوية في سوريا التي تشارك فيها الدول الكبرى منذ ذلك الحين ستؤدي إلى تشريد المزيد من البشر وإجبارهم على سلوك طريق اللجوء بفاعلية أكبر من تلك التي ستحارب بها الدولة الإسلامية.

وبقدر ما احتفت ألمانيا بسياسة الترحيب على نحو مبهر، بقدر ما يتزايد الإحساس الجمعي بالعبء بعد مرور ثلاثة أشهر، هذا إن صدق المرء تلك التقاريرالصحفية التي صارت تعج بتحذيرات شديدة تعويضًا عن إلحاحها الأوليّ المستمر في استدعاء روح كرم الضيافة، لكن لعل الفرحة الغامرة التي اجتاحت ألمانيا كانت مصطنعة بتأثير من الميديا مثلما أن الامتعاض الحادث الآن هو مصطنع بتأثير منها، على أي حال فإن الاستعداد للمساعدة لم يفتر وهذا ما تؤكده السلطات في كل مكان ويؤكده العيان

المباشر في محطة القطار التابعة لمطار كولونيا، ثم إن اللقاءات الإنسانية المباشرة التي تهز الوجدان، وما لمسه الألمان فيها بشكل شخصي من معاناة اللاجئين وشعورهم بالامتنان لن يكون من السهل نسيانها، فأيضًا في كولونيا، مثلها مثل سائر المحطات على مسار اللجوء، كان الشباب هم الذين تطوعوا للإغاثة، شباب في سن العشرين أو الخمس وعشرين، شباب ذوو خلفيات ثقافية متباينة، ومؤهلات متنوعة، ولغات مختلفة، وكأنهم كلهم التجسيد الفعلي للفكرة الأوربية، وإن كان ذلك كذلك فسيكونون هم من يحافظ على أوربا ويبدؤون من جديد بحيث لا يكون في وِسع جيلنا -الذي تأثر بالحرب وبالفاشية- أن يغامر بها.

شكر

ما بين 24 سبتمبر و2 أكتوبر 2015 سافرت أنا و مويزز زامان بتكليف من المجلة الإخبارية (دير شبيجل) من بودابست إلى إزمير، وقد ظهرت نسخة مختصرة من تقريرنا (نحو ثلث النص الماثل بين أيديكم) في عدد 11 أكتوبر، أشعر بالامتنان العميق تجاه عدة أشخاص: لوتار جوريس، مدير القسم الثقافي، ماتياس كروج من هيئة تحرير الصور وجوردون بيرتش من قسم رحلات(دير شبيجل) فقد قاموا بدعمنا بأفضل طريقة ممكنة، أليكس ستاتوبولوس من (برو أزول: Pro Asyl)، رومانا لينتس وتوماس جيباور من (ميديكو انترناتسيونال: medico international) وكذلك هاجن كنوب من (ووتش ذا ميد: Watch the Med) قدموا لنا النصح في اختيار خط السير وأوصلونا بمن يرشدنا ويساعدنا، باساك ديمير ساعدني في التحضير لرحلة تركيا، نيكول كورتني- ليفر تولت تجهيز التصديقات الضرورية وساعدتنا في مسائل أخرى عديدة، مساعدي فلوريان بيجيه أمدنا طوال رحلتنا بكل المعلومات الجارية والتقارير عن الأوضاع من ألمانيا، الكاتب البلجرادي فلاديمير أرزيني فيتشو

المديرة الثقافية ميلينا بيريتش الذين استقبلونا على الحدود المجرية الصربية وصاحبونا حتى مطار تيسالونيكي، وبهذا فقد أضحى فلاديمير وميلينا على هذا الجزء الطويل من مسار اللجوء أكثر بكثير من مجرد سائق ومترجم ومرشد، فلقد أثرونا برؤاهم وباتصالاتهم بعدد لا نهائي من المعارف في منطقة البلقان برمتها وبصداقتهما، أخيرًا أشكر محرر كتابي من دار نشر (تسي ها بيك: C.H. Beck) د. أولريش نولته ومساعدته جيزيلا موون اللذين قاما برعاية نسخة الكتاب.

ومباشرة بعد سفرنا وصل أخي خليل وزوجته بيتا إلى ليسبوس وبدآ مشروعًا لمساعدة اللاجئين، تجدون عنه معلومات وكذلك حساب التبرعات تحت رابط:

www.avicenna-hilfswerk.de

نافيد كِرماني، كولونيا، 10 ديسمبر 2015.